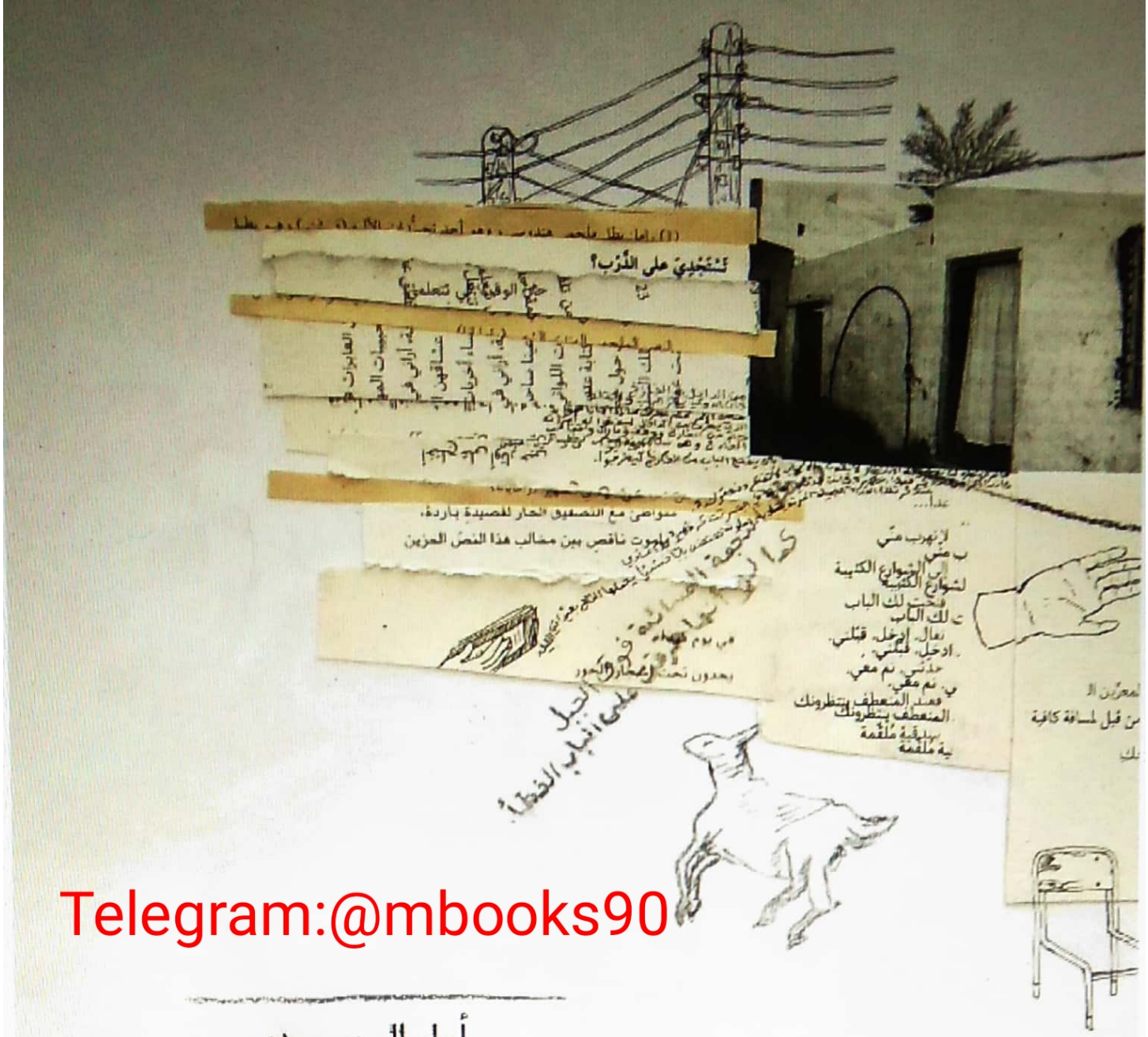

Telegram:@mbooks90

أمل السعيدي

مدخل جانبي (*) إلى البيت

سرد

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨

إهداء

إلى الكويت

"فلكل إنسان مكانه الطبيعي، لا الكبرياء، ولا القيمة هما اللتان تحددان ارتفاعه: إن الطفولة هي التي تقرر" –

سارتر، الكلمات

"المساء يصنع فكرة البيت" –

بسام حجار

"إن المكان في مقصوراته المغلقة التي لا حصر لها يحتوي على الزمن مكثفًا. هذه هي وظيفة المكان" –

غاستون باشلار، جماليات المكان

دوران حول البيت

أوّلُ البيت

لطالما هددتُ أمي أنني لن أجلس في البيت يومًا واحدًا بعد أن أبلغ الثامنة عشرة، وأنني عندما أدخل الجامعة لن أعود مهما حدث للبيت. لكنني الآن هنا وعمري 26 عامًا، في البيت، ليس تمامًا في غرفتي القديمة، لأن ترتيب الغرف تغير مرارًا منذ ذلك الحين، هاربة من عملي، ومن كل أحد أعرفه، إلى سقيفة منزلنا، وكل شيء مرتبط بها.

كنتُ أشعر بالنعاس، الساعة السابعة والنصف مساءً، لأنني محمية من كل شيء، يمكن ألا أكون مصابة بالأرق ليوم واحد، اليوم الذي أكونه في بيتنا القديم.

كل علامات البيت التي كانت تزعجني في الماضي، الخطوط السوداء الرفيعة على جدار ذهبي، كأنها شقوق وضعت للزينة، البلاط البني، الذي تبرز منه رسومات على أشكال زهورٍ مبالغ بها، السجاد الفارسي الملون، محاولة توحيد الألوان، الستائر، الأرضية، والسقف، لون غطاء السرير، لون دولاب الملابس المشترك، كل شيء على خلاف أثاث شقتي في مسقط، الأثاث ذي الألوان المحايدة، أثاث إيكيا سهل التركيب، البهتان العام لكل شيء حتى لا يتسبب بالنفور، كل شيء في البيت القديم هو ما لا أملكه في شقتي الجديدة ومع ذلك أنا هنا الآن.

انتقلنا لهذا البيت عام 2002، وكنا لأيام عدة نسأل والدينا، متى ننام في البيت الجديد؟ وفي كل مرة نسمع إجابة مختلفة، لم يكن هنالك يوم محدد، حسما أمرهما بالانتقال إليه، هنالك أعمال قائمة في البيت بعد الانتهاء من بنائه، تنظيفه، توصيل الكهرباء وغيرها، وفي إحدى الليالي، كنا عائدين من بيتِ جدي لأمي، كان ذلك في ساعة متأخرة من الليل، وكنتُ نائمة في السيارة كما كان يحلو لي دائمًا أن أفعل، عندما وصلنا

للبيت، حملني والدي من السيارة وتركني في فراشي الجديد، واستيقظت في منتصف الليل خائفة للغاية، بسبب رائحة الطلاء التي نفذت إليّ، وهكذا كان لقائي الأول بالبيت، غائبًا إلى هذا الحد وغريبًا، وصادمًا، كما سيكون دائمًا.

كان البيت بالنسبة لأسرة فقيرة، لا يتجاوز راتب سيد البيت فيها 300 ريال، شيئًا في غاية الأهمية، كان ضخمًا للجميع، حتى وإن كان ضيقًا علينا، مَثَّل لأمي "تاج محل" الذي لا تعرفه، ملأ الجو الجديد، كل من في البيت بنوع من الزهو، الذي دفعهم لعيش سنوات قادمة مختلفة، قبل هذا البيت، كنا أربعة نعيش في غرفة واحدة صغيرة جدًا، ونستخدم حمامًا مشتركًا مع عشرة آخرين، عندما كنتُ أرتدي حذاء أمي الأنيق، لم أكن أستطيع السير في الغرفة، لأن سرير أبي وأمي هناك، وفراشي أنا وأخوتي على الأرض، لم يكن هنالك متر واحد من الفراغ في تلك الغرفة، وكان صوت أمي وأبي يتجادلان طوال الوقت، قد ترك بصمة على كل شيء فيها. بعد أيام من انتقالنا للبيت الجديد، قتلت أمي أفعى بطول بضعة أمتار، وأصابني ذلك بالرعب الشديد، تزامن هذا مع الحديث المفضل للطالبات في مدرستي آنذاك، عن السحر والشعوذة، وكنتُ قد بدأت أكره هذا البيت منذ ذلك اليوم، خصوصًا وأننا لم نمتلك مطبخًا، فصنع أبي كوخًا صغيرًا في الخارج، ووضع فيه ثلاجة وموقد نار، لذلك كنا نضطر لقطع مسافة لا بأس بها لكي نشرب كأس ماء، من ذا الذي يمكن أن يضمن عدم وجود عائلة من الأفاعي هناك. في اليوم التالي، شاهدتُ أمي تحفر الأرض، وتضع شتلات من النعناع أمام المطبخ، كأن شيئًا لم يحدث أمس، هكذا سيعيش جميع من في هذا البيت لوقت طويل.

عندما أصبتُ بالفواق، في ليلة شتوية ، في الأسابيع الأولى من انتقالنا للبيت الجديد، وفي بيت جدي لأبي، قال أبي، عرفتُ من الذي كسر

مصباح واجهة البيت الأمامية، وكنتُ أجهل أنها مكسورة حتى ذلك الحين، بدأت أبحث عن هذا الذي فعلها، لكن أبي كان يحدق نحوي، كنتُ مذعورة للغاية، وذهب الفواق سريعًا وضحكوا جميعًا، وهكذا عرفتُ أن الخوف يوقف الحازوقة، ولم يعد ذلك مجديًا بعد تلك المرة، كان أي شيء يتعلق بالبيت، بذلك الشيء بالغ الضخامة بالنسبة لهم، يهددني باستمرار، إنني على وشك أن أخون ميثاقًا ما، إذا ما تصرفت من تلقاء نفسي، كمن يقود سيارة باهظة الثمن، ولا يملكها، ويخاف من أن يحرج نفسه إذا ما تعرض لحادث، لا يفهم هذا الأخير أن الحادث يعني أن حياته هو المهددة، كل ما يفكر فيه أنها ليست سيارته، دفع فيها صاحبها مبلغًا طائلًا من المال، إنه لن يضيع مال فلان!

ولأننا نعيش وسط الخلاء، "السيح"، لم تكن حافلات المدارس تقبل أن تأخذنا من البيت، كنا نذهب سيرًا على الأقدام لمسافة كيلو مترٍ ونصف، لنتمكن من الذهاب للمدرسة، كنا معزولين تمامًا، لا بقالات، ولا جيران، مزارع خضراء مترامية هنا وهناك، واد سحيق شمال البيت، أشجار "سمر" متناثرة بإرادة صلبة، عندما يأتي أحد لزيارتنا، ينزلون عند بيت جدي القريب، احتراما له، وكنا نذهب هناك لتحيتهم، لم يكن هذا البيت مكانًا لأي شيء غير ضخامته هو نفسه بالنسبة لمن هم فيه، وبعد سنوات، سيكون مليئًا بأزهار مختلفة، ياسمين، نرجس، ورد جهنمي، ملكة الليل، ملكة النهار، وستصر أمي أن تصورني بملابس الابتدائية الصفراء آنذاك، أمام الياسمين، وتعيد التصوير في كل مرة، لأنني لم أكن لأبتسم أبدًا.

في وسط البيت

كان من العادة أن يذبح الناس، شاةً أو خروفًا، عند الانتقال لبيت جديد، لكننا أجلنا ذلك لحين موعد ولادة أخي، العقيقة والوكيرة، هكذا قال أبي، لأولئك الذين ظلوا يطالبونه بـ "عزومة" البيت الجديد. وفعلًا

جاء أخي، الولد بعد ثلاث فتيات، كانت رائحة السمن العربي نفاثة في البيت، وجدتي تخبز يوميًا في بيتها، ثم تجيء لأمي بالخبز وعسل السمر. كان ذلك في شهر نوفمبر، والأبواب مشرعة طوال النهار، فلا حاجة للمكيف، وكان دهان البيت داكنًا، فبدا أن الشمس التي تدخل البيت، تحاول دون جدوى أن تفعل شيئًا ما.

كان مسجد القرية يبعد عن بيتنا مسافة كيلومترين، بجانب بيت عمتي، وكانوا يسمونه باسم صاحب البيت المجاور له، مسجد ولد سيف، في ذلك البيت شجرة تين، لم أتجرأ على تذوقها يومًا، وأمامها بالضبط، أرجوحة معلقة، ولعبة اللوح المتوازن، وكنتُ أخاف من ابن زوجته الأولى، الذي يأتي لزيارتهم في العطلات، كانت له ملامح حادة، وتقليعة شعر غريبة. لذلك لم أفهم لماذا الإصرار على إنجاب ولد، إذا ما كان في نهاية الأمر مخيفًا. كانت جدتي تتركني هناك، لأن أبي يعمل في صلالة(1)، وأمي تعاني من مشاكل في الحمل. لم نمتلك في بيتنا أي لعبة، حتى سنتي الجامعية الثانية، أذكر أن أحدًا لم يذكر شيئًا عن اقتناء زحليقة كبيرة، ففوجئت بها في البيت، كان هذا مربكًا بالنسبة لي، فمنذ متى يلعب الأطفال خارج مخيلتهم؟

خلال السنوات الأولى، سأعمل على تنظيف حوش البيت من الأوراق الساقطة من الحديقة التي تطوق باب المدخل على شكل حرف U، وفي يوم زفاف خالي الثالث عشر، سأطلب شيئًا لا أتذكره الآن، لكن أبي سيرفض بشدة، وسأبكي بصوت عالٍ، كان ذلك اليوم، هو أول وقت أقضيه لوحدي في البيت، لأن أبي قرر أن يعاقبني وألا يأخذني لحفلة الزفاف، كانت الساعة الحادية عشر صباحًا في شهر أغسطس، حرارة الصيف، تدفئ كل مظاهر الحياة، وكنتُ غاضبة، ولأن أحدًا لم يكن أمامي، بدأت أقتلع أعواد الأشجار الرفيعة من تربتها، وعندما عاد أبي للبيت، فوجئ بتلك "الجثث" النباتية المتكدسة، وأمسكني دون مقاومة

مني، وربطني في عمود خشبي، كان من المفترض أن يكون واحدًا من أربعة لمظلة ألمنيوم لسيارته، لكنه كان عمودًا وحيدًا حتى ذلك الحين، وتحت شمس آب الملتهبة، سأرفع قدمًا، وأنزل أخرى، كلما حرقتني حرارة الأرض، ولن أبكي أبدًا، في يومي الأول وحيدة في هذا البيت.

سريران، ثم ثلاثة أسرة، ثم أربعة، غرفة صغيرة، لا مسافة بين السرير والآخر، كنا نضطر للمشي على الأسرة حتى نستطيع الخروج من الفراش، ولم نكن نخطئ فندوس قدمًا، أو نركل بطنًا، كنا نعرف أين نضع خطوتنا التالية، وبعدها قررت أمي أننا نحتاج لأسرة الطوابق، لأن أسرتنا الخشبية تشغل مساحة الغرفة كلها، وجد أبي صفقة أسرة جيدة في سوق "البداية"، وبدأنا نتشاجر، من منا فوق، ومن منا تحت، بطبيعة الحال، الجميع كانوا يريدون السرير العلوي على سبيل التغيير الملحمي بالنظر لحالة جديدة كليًا علينا، أما أنا فكنتُ أفضل السرير السفلي، لأنني لن أحتمل أبدًا ذلك الانفتاح الكبير فوق، تحت يشبه الجحر، قبل الأسرة كنتُ أصنع خيمة من أغطية السرير، وأختبئ تحتها، لم يكن لهذا أي اسم آنذاك، لكنه كان موجودًا، وكان غامرًا فلا يمكن العودة منه.

تمنيت لو أنني مصابة بعرج طفيف مثل زميلتي التي تجلس بجانبي في الصف، أو أن تكون أمي هندية مثل والدة زميلتي الأخرى، تمنيت لو أن شيئًا فريدًا يتعلق بهذا البيت، ينبثق فجأة، كنا لا نذهب للمستشفيات، ما عدا مرة واحدة، انفتح فيها رأس أخي، عندما كان يحبو، نفس الطفل الذي ذبحنا عقيقته، سقط من سلالم البيت الأمامية، وكان أشبه بخرقة حمراء بين يدي أمي، أما أنا فعدوتُ سريعًا لبيت جدي، وأنا أنادي عمي الأكبر، بكلمات متقطعة، مستشفى، درج، دم واجد، مات، لتهرع أمي وهي تنتحب. مازالت علامة الجرح في جبهة أخي، منذ سنتنا الأولى في هذا البيت. على هذا السلم، سنشهدُ الحدث الوحيد الكبير في البيت، الحدث الفريد من نوعه، أبي يقبلُ أمي صباح كل عيد عند عودته من المسجد،

Telegram:@mbooks90

على شفتيها، كأن من المسموح وعلى غير العادة أن ننفعل بصوتٍ عالٍ.

بعد منتصف البيت بقليل

كان فناء البيت الخارجي ممتدًا، وعندما نقطع باب المنزل الرئيسي نحتاج لنصف دقيقة لنصل لأول عتبة من سلم البيت، هناك نترك أحذيتنا، تُظلل الدرج شجرة يسمونها "ملكة الليل"، ذات أزهار أرجوانية وتمتد لأربعة أمتار، في الجانب الآخر، كرمة مشدودة إلى لاقط البث الفضائي على سطح البيت، بحبل رفيع. ما إن تدخل البيت، حتى تحسّ أن الشمس لا تعرف زواياه، يعود ذلك للون الطلاء الداكن، الذي كان عالقًا هناك بإرادة حديدية، في ألبوم العائلة ثمة صورة، ملتقطة من سلالم البيت الأمامية، فيما باب الصالة مفتوح، كنتُ أحمل أخي الذي يبلغ من العمر الآن سبعة عشر عامًا، وكنتُ أرتدي ثوبًا بنيًا طويلًا، تقف بجانبي عمتي، إلا أن وجوهنا معتمة تمامًا، لا تكاد تميزنا، بسبب درجة الإضاءة التي تمكنت العدسة من التقاطها، هذه الصورة وفي كل مرة أراها فيها، تأخذني إلى النبرة التي كان يحدث بها كل شيء، الهواء، حضور الأجساد، أغطية الشعر المنسدلة على أكتافنا، لوحة صفات الله ذات الحجم الكبير، المزهرية بالورود الاصطناعية الملونة دون تناسق، أشياء لها وقع هائل، تفصل بينها بعض الأسرار ، حرارة مهدرة، إيماءات صغيرة، ستكلفنا حياتنا القادمة.

في وسط الصالة ثمة سلم يفضي لسطح البيت، وعند الباب قبل أن ندخل للسطح، تضع أمي صندوقًا خشبيًا كبيرًا، فيما عدا الحشرات الصغيرة التي تكاثرت هناك، يوجد مئات الرسائل المكتوبة بخط اليد، والتي تبادلتها أمي مع أبي في بداية زواجهما عندما كان يعمل بعيدًا، ورسائل من الصديقات، ورسائل تهنئة الأعياد ذات الطابع العمومي. تخبرني أمي أنها قررت إزالة السلم، بغرض توسعة صالة البيت، ولن يكون هناك غرفة علوية بعد الآن، وأفكر في أي مكان ستضع ذلك

الصندوق الذي لم يعد له حاجة في الظاهر. ربما عليها أن تتذكر رسالة منى، التي كتبت لها عن الخمول الذي يسببه لها بيتها الجديد، مستخدمة كلمات بسيطة ومتذمرة، لا تريد أن تعمل بعد الآن، أو سامية التي كانت تكتب رسائل تنسخها علياء، أشتاق إليك، انتظرت رسالتك، عذرًا لأنني لم أجب على رسالتك الماضية "أم سيف". كانت أمي تكنى بأم سيف، لكنني فتاة، وقد جئتُ بعد خمس محاولات للاحتفاظ بالحمل، هنالك ظلال خطية على وجهي لكل تلك الأظرف الممزقة، ولطوابع البريد المبتذلة، ثمة أسرار دفينة عن علاقتهما هي وأبي، تلميحات عن هجران موشك، وغيرة قاتلة، واستسلام مضنٍ، أين ستحل كل هذه الوحدة بعد أن نتخلص من درج السطح.

لم يكن للبيت جيران، منزل جدي فقط، صنعنا هيئة المكان، تأويلاته المقتضبة، أليست هذه كلمة كبيرة؟، في أيام العمل والعطلات، في أوقات الفرح والحزن، أي سيارة ستمر من هنا ستكون لفحة حياة الآخرين التي تحيط بصاحبها هي حياتنا نحن، كان صوت العصافير يسيل في المكان أكثر من أي ضجيج قد نصدره في أوقات النهار، أما في الليل فإن الضباع التي تسكن في الوادي القريب تتكفل بإضافة جو ملحمي وبعجل فريد قد أمسى طبيعيًا، كان صوت الأشياء الجامدة قويًا، ولم نكلف أنفسنا عناء فعل شيء ما. ربما كان هذا هو الشيء طيلة الوقت. ثمة حصالة فوق الطاولة، لم تكن هدية لي، ولا لأختي، تخلص منها خالي، كان الثقب فيها كبيرًا، وكم بدا ذلك مريحًا بالنسبة لي، فصبري نافد، أتحملُ كل هذا البيت وحدي.

حكة في العنق، تسببها إبرة حجاب المدرسة، أمشي في الطريق، يقلني الباص من مسافة كيلو مترٍ ونصف عن البيت، خطوتي قصيرة، كان السائق هو أول من نبهني لذلك، ثم كنتُ أحاول أن أسرع، لا ألتفت للوراء مهما حصل، أخشى أن أغضبه، في الواقع لا أُغضبُ أحدًا، عندما

أفتح الباب وأجلس، لا أفكر في تلك اللحظة، يبدو لي، أنني كنتُ أعيش في شيء يشبه الواقع المتقطع، وتسألنا المعلمة، كم عددكم في البيت؟ الجواب يختلف كل ثلاث سنوات، سؤال مباشر، لا أبذل فيه جهدًا تخييليًا، لكنني كنتُ وحدي!

ما زلت أتذكر بكاء عمتي الكبيرة، أما عمتي الأصغر سنًا، والتي كانت تنتظر طفلها الأول، فكانت تحدقُ في سرير جدتي الشاغر بشرود مُعذب، لم أستطع النظر إلى وجه جدي، تسلقت حتى نافذة غرفته، وراقبته، بينما عمي يحاول أن يثنيه عن خياطة الكفن، جدي لا يستطيع الرؤية، كان يضع نظارة ومع ذلك لم يستطع أن يرى جيدًا. كانوا ينتظرون سيارة الإسعاف التي ستجلب الميتة. كنتُ أمشي مسافة كيلو مترٍ ونصف ذهابًا وإيابًا في ساعة متأخرة من الليل دون أن أحس بالخوف، في هذا الطريق كان خيال جسد جدتي الواهن قد حط للأبد.

لم نعد نكبر بعد ذلك اليوم، كان ذلك الصمت الدقيق، تلك الوحشة الصلبة، في أركان بيوتنا جميعًا، وكان هنالك ذلك الشيء الذي عذبني مرارًا: هل يُعقل ألا يحدث شيء أي شيء لهذه البيوت؟ لم يكن الأمر أننا فقدنا جدتي فقط، لا أستطيع أن أصدق حتى الآن، أن ثلاثة من إخوتي لم يعرفوا جدتي أبدًا، لقد بدا أننا جميعًا، كنا هناك، ولن نذهب لأي مكان آخر.

آخر البيت

اعترض أبي على رغبة أمي أن تفرش الحوش بالعشب الاصطناعي، أصرت على موقفها، كما تفعل دائما، يقول أبي إنه يحب أمي كثيرًا، لكنها كانت تحبه أكثر في الماضي، عندما فقدا طفلهما الأول، تعلقت أمي بعنق أبي، تشبثت به وهي تبكي، كان في عمله بعيدًا عنها، لكنه عاد بعد أن سمع بالحادثة، يتذكر أبي جيدًا النفور الذي سببه هذا العناق له، خصوصًا

وأنه كان في غرفة واسعة بها ما يزيد عن عشرة أسرة، ولا حواجز تفصل بينها، يتذكر جيدًا كيف تسمرت عيون الجميع عليهما أو هكذا شعر من الصمت الذي لف المكان فجأة، يقول أبي إنه يتمنى لو يعود لتلك اللحظة، يشعرُ أن أمي تحبه أقل الآن كعقاب له لأنه لم يحبها في ذلك الوقت. لكن أمي تضحك خجلة عندما تسمع هذا الكلام، وكأنها تعاتبه بنظرتها، التي تقول إنك تستجدي عاطفيًا أمام أولادنا، ليشعروا بقيمة أن أحبهم وكم هم محظوظون بذلك. اصطحبتُ أمي للإمارات لشراء أثاث جديد للبيت، صديقاتي المقربات هاجرنَ، أما أنا فأقارن بين أسعار شركات الشحن، التي ستحمل الأثاث الجديد للبيت، أتوقفُ مليًا أمام بعض الخيارات، أتخيل ردة فعل أبي عندما يعرف الصفقة التي سأختارها، لا شيء يعنيني من أثاث البيت، سوى أنني ما زلت أهابه، كما لو أنني لم أكبر أبدًا، هل يتغير الناس فعلًا؟ أم أننا نكذب على بعضنا، لماذا لايزال في قلبي الحزن القديم نفسه، والإيقاع ذاته للبيت المهجور، ولنبذنا في أقصى القرية، صوتنا أقل من حفيف الأشجار فيها.

أخي الصغير يحب بنتًا من الجيران البعيدين، نعرف جميعًا ذلك لكن أحدًا لا يتحدث عن الأمر، مازال صغيرًا، لكنه يحبها كثيرًا، يشرد في الحوش وهو يتأمل كرةً متهالكة لا يلعبُ بها أحد، عندما تمطر، تعدُّ أمي زنجبيلًا بالعسل، كان هذا أول شيء نحفظه عن الشتاء، وربما كان التقليد الوحيد، لدينا خزائن واسعة، لا نقسم فيها الملابس حسب الفصول، أبي يربي النحل في "القنوت" ويقول إن العسل يشفي من كل شيء، أمي صارت تقرأ القرآن أكثر، أخواتي، لا يجتمعن على النمائم، نتحدث أحيانًا عمّا حصل في الجامعات أو العمل، لا يحتملن أن أبكي، أنا لا أبكي بصراحة، لكنني عندما أفعل أبكي أكثر من البيت، وكم يكون ضيقًا حينها بشكل ملموس، وكم يكون ناجحًا إذ تبكي طفلته الأولى كما هيأ لنفسه منذ أول حفرة في أساسه. البيت، البيت، أين سيذهب بنا بعد؟

على الطريق

مدخل: يقول لي أبي إنني كنتُ أنام في السيارة منذ أن ولدت، وإنني عندما كنتُ أبكي بشدة، ونادرًا ما حدث ذلك، كانوا يأخذونني للسيارة فأنامُ فورًا.

أعود إلى غرفتي عبر طريق مسقط السريع، كان أخي محمد قد قال لي إنه طريق طويل بالمقارنة مع الشارع العام، لكنني أفضله، السيارات قليلة فيه، حارات الشارع واسعة، لا أكون متحفزة عندما أقود في هذا الطريق، لا أضغط على الفرامل وأنا خائفة، أستمتع بقيادة السيارة، وسماع الأغاني حسب مزاجي، وأعدُّ لكتابة المقالات التي ينبغي تسليمها قريبًا، أمي تقول إنني أقضي الوقت في الطريق أكثر من أي مكان آخر، أتفق معها، يخافون عليّ من أن أموت على الطريق، لا أن أموت من كآبتي مثلًا، أو من سرطان الثدي، أو من البحث عن الحب المفقود.

الجو في الخارج شديد الحرارة، في داخل هذا المكان المغلق، أكون امرأة هستيرية، أسمحُ لنوع من الحزن المسرحي أن يعبر عن نفسه، أتحدث عادةً بصوتٍ عالٍ، قبضتُ على نفسي في بعض المرات وأنا أسأل لماذا أنا؟ باللغة الإنجليزية، لم أتخيل على الإطلاق أنني سأستطيع أن أحب مجددًا، بدا لي العالم باهتًا، كل هذه البراري التي أقطعها والجبال التي أمر عليها، أصدقُ من كل الأوهام الخضراء، هنا الدنيا صافية، وبلادي ليست قضية على الإطلاق، لا أعرفُ لماذا لا أفكر هنا بالطبخ مثلًا، أو بشراء ملابس جديدة، لا تأتيني إلا أفكارٌ مجردة عن الحياة، وعندما أبدأ بالنظر إلى يديّ على المقود، هذه الالتفاتة لشيء محسوس، تأخذني فورًا لذاكرتي، كل عطب يصبح مستثارًا، تذكرتُ اليوم الفسحة المدرسية قبل نحو ثمانية عشر عامًا، استطاعت منال أن تقنع أمها بأن سوق المدرسة المفتوح في ذلك اليوم مهم لها، وكانت قد أحضرت ورقة نقدية بقيمة

خمسة ريالات، صفاء أحضرت ثلاثة ريالات، وأنا عندما أخبرتُ أمي مثل مذنبةٍ تعترف بجرمها، رفضت. قلتُ لمنال، لدي خمسة ريالات لكنني سأوفرها لأشتري كتبًا في فبراير المقبل، قلتُ لها لا أحب المجوهرات، ولا الفساتين المنفوشة، وأكره الذرة التي تعدُّ خصيصًا لهذه الأيام، قلتُ لها ذلك عندما كنتُ أتدرب للدفاع عن نفسي، أما عندما كانت تتخايل بورقتها النقدية، فقد بدأتُ أبكي وأنا أعض على شفتيَ، كي لا ترثيا لحالي، كنتُ في الصف الثالث، أجلسُ على حافة ممر الفصول الدراسية، ولا أبدو طفلةً كاملة، ثرى.

كان الفيلم الأول الذي أخرجه أنغمار بيرغمان، وعنوانه "إنها تمطرُ على حبنا" دافئًا، ما زلت أتذكر (Barbro Kollberg) وهي تقول لـ(Birger Malmsten) يدك بيضاء، ومن ثم عندما يعترف لها بأنه خرج من السجن يوم الإثنين الماضي، تقول له، لهذا يدك بيضاء، يا ترى لماذا تبدو يدي هكذا؟ ثمة دكنة في ظاهر كفي، ظننتُ أن أقنعة صالون (chic) في شاطئ القرم ستغسلها، إذا ما افترضت أن لون اليد مرتبطٌ بكل ما عشته حتى اليوم، فكرة بديهية، وساذجة، مرة التقطتُ ليدي صورة وهي على المقود، كنتُ أرتدي خاتم الزواج، وضعتُ الصورة في معرفي على فيس بوك، ويومها ظننتُ أنني أرقى نحو النجوم، بدا لي أن كل شيء غدا سُلمًا، سأتزوج في الثالثة والعشرين، بكل بساطة، مثلما يفعلن ذلك بسهولة، لستُ أسيرة تعقيدٍ خاص، كان الدركسون شاهدًا على ذلك، اضربيه إذن، اضربيه كثيرًا، أو اسأليه بلغة عربية واضحة وسهلة: لماذا أنا؟ بصوتك أنتِ، لماذا أنا؟

مات (Malmsten) عام 1991 لم يكن لي يدٌ حينها، أمي تفقد أجنةً يوم ولادتهم أو قبل موعد الولادة بثلاثة شهور، كانت لهم أياد تشاهدها عبر الأشعة فوق الصوتية، وكان قماطي قد سبقني لبيت عائلتي، لكنه كان لثلاثة من قبلي، لذلك أسمتني أمي أمل، عشتُ مصادفةً، وأصبح

لي يدان، وهذا الطريق السريع، الذي لا استراحات فيه، أول مرة جربث القيادة فيه، فاتني أن آخذ المخرج لمدينة مسقط، لذلك عدث للوراء بالسيارة، عندما أقص هذه الحادثة على أصدقائي يشهقون، كانت ستصبح حفلة موت لو لم يستر الله، أضحكُ كثيرًا لشجاعتي الظاهرية، براءتي رأس مال حتفي، ويدي على مقود السيارة، وأنا أبكي كثيرًا، وليست لدي غرفةٌ واحدة في كل بلادي، لي أماكنُ مؤقتة عديدة، لي انتقال مستمر، وليس لديَ أبدًا نفسي.

طراوة الجبل

"فالأعشاب الأولى يبدو أنها كانت نباتات ظل الغابة."

ستيفن هاريس، الأعشاب

بيتنا، كان قريبًا من الوادي، ومجراه العميق، تطلعُ فيه أشجارٌ برية، والذئاب تعيش هناك، ورغم أنني كنتُ أقضي وقتًا طويلًا في جرف الوادي الشرقي والمحاذي للبيت، إلا أنني لا أكاد أعرف شيئًا عنه. لم يقل لي أحد، كيف أصبح هذا المكان بهذه الصورة، بل لم يأتِ على ذكر تلك الحفرة الطويلة والضخمة أحد. وكنا نقطع ذلك الوادي بالالتفاف عليه، بدلًا من خوضه، باتجاه مزرعةٍ خلفه، جدتي تقصُ حشائش الحقل لأبقارها. وأنا وأختي نقطف الفلفل الحار، والطماطم الغضة، ثم نحصل على مائة بيسة لقاء كل صندوق ممتلئ.

أمطرت ذلك اليوم بشدة، حتى "دفعَ" الوادي، ورطب الماء البني الجاري شعاب الوادي، ونباتاته، وذهب جميع من في البيت لمشاهدته يتدفقُ من مكان غير معلوم بالنسبة لي، قادمًا من البعيد، كنتُ حينها أحاول الوصول إلى زاويتي المفضلة من الجرف، عندما امتصني ارتفاع مكور أشبه بتلة صغيرة، كانت طرية، عندما وضعتُ قدمي عليها، ظننتُ أنني في مأمن من الماء الجاري، تلقفني أبي فورًا، وضربني كثيرًا. أردتُ أن أقول له إنني لم أكن أعرف أن الوادي سيجرفني، وإن تلك التلة الصغيرة مغشوشة، وإنه وأمي يعلقان صورةً لهما وهما يقفان في عمق الوادي، واقفًا على تلة هو الآخر، كان يرفع ثوبه الطويل، وأمي تبتسم بخجل للكاميرا، كان ذلك قبل زمن بعيد، قبل أن أولد.

ومنذ ذلك الحين ولدي حواس يقظة، لأنني تعلمتُ درسًا قاسيًا، أنني مسؤولة لا عن اللمسة وحدها فحسب، عليّ أن أقدر الأشياء، تلك التي يمكن أن تذوب أو تتبخر مع مرور الوقت، فصرتُ حبيسة حالة ذهان

أرى فيها الأشياء تمتصني قبل أن يحدث هذا حقًا. يتطلب ذلك بعض التمارين، للتوصل للتأثير نفسه، قد تبدو قمة الأشياء ضخمة، لكن على المرء أن يتخيل نمطًا لكل ما هو موجود، حتى تطفو على السطح كل المكونات التي تنتمي إليه، ومن خلال هذا النموذج المستقيم، يمكن أن نستمع لحركة الديدان الشريطية داخل أكثر الأجساد جمودًا.

في عودتنا من المزرعة خلف الوادي، كنتُ أنظر إلى الوادي، وأتمنى لو يمكن أن نقطعه بالسيارة لأتعرف عليه، لكن هذا لم يحدث أبدًا، وبعد مرور خمسة عشر عامًا، سألتني أختي: ها مازالت تلك المزرعة في مكانها؟ وأخذت شهيقًا، وأنا أحاول استعادة صورة ما يقف خلف الوادي الآن، ولم أستطع أن أتذكر إذا كانت في مكانها نفسه على الرغم من أن حفرة الوادي مازالت هناك، موحشة وغير معلومة، وكما يبدو تقطعُ النظرَ مع مرور الوقت.

كنت أستلقي على السجادة الشرقية في وسط الصالة، كما لو أنني ميتة، وعندما أسمع قلقلة المفتاح في باب غرفة أبي، والذي يخترق منتصف الصالة، أعدلُ من جلستي لكنني أبدًا لا أدعيَ الشرود، أحدق فيه بتركيز، إذ إنني اذا شردتُ فهذا لأنني أفكر في شيء شيطاني، ومع أن التفكير كان عزائي الوحيد عن محدودية الواقع، إلا أن عليّ أن أخبئ خيالاتي في مكان آمن، على الأقل حتى أتمكن من مغادرة هذا البيت، أعود إلى الهيئة الناعسة ما إن يخرج من البيت، ثم أتمددُ على الأرض، وأتكورُ كما لو كانت تلك السجادة مهدي، وفي بعض الأحيان التي أظهرُ فيها شجاعة وإقدامًا، أضعُ قدميَ على الجدار، وأضحكُ كثيرًا لأنني أستطيع الاستلقاء بينما قدماي معلقتان هناك، شاهدتُ أختي في إحدى المرات تهبطُ من سلم السطح، وتلعبُ هناك، لكن ذلك لم يُغرِني، وعندما كانت تنام بقربي، كنتُ أضحكُ كثيرًا، كما لو أنني وجدتُ جوابًا مبهمًا عن سؤال مبهم! فصارتَ تعرف أن هذا يضحكني كثيرًا، خصوصًا إن تغطينا

باللحاف نفسه.

وفي أحد الأيام أمطرت كثيرًا حتى إن نافذة السطح سربت الماء للصالة، فابتلت السجادة كثيرًا، فكرث فورًا بينما أبي وأمي نائمان، أن عليّ أن أطويها، لكنني تراجعت على الفور، ليس لدي ثقة بحدسي على الإطلاق، وعلى ما يبدو أنني فاشلة فيما يتعلق بالأشياء الرطبة، لم أستلقِ يومها على السجادة، وبدلًا من ذلك، تظاهرث بالنوم، قالت لي أختي عندما خرجتُ في اليوم التالي من فراشي، إن اللعب في الماء فاتني، كانت تقفز داخل المستنقعات الصغيرة كما لو أن الوادي جاء أخيرًا، كنث أستمع إليها بتركيز شديد، لكن هيئتي المسرنمة توحي بأنني غير مبالية، قالت هذا وتأففت كثيرًا لأنني لست من النوع الظريف الذي يلعب ويحب المتعة. ولم أقل شيئًا بخصوص هذا حتى هذه اللحظة.

ما الذي حدث بالضبط

لطالما كان سؤال المسافة بالنسبة لي ملحًا، كيف يستطيع الآخرون التخلي عن مساحاتهم الشخصية بهذه السهولة؟ أية مقايضة تستحقُّ هذا كله؟ وكنتُ طوال الوقت ألحُّ في السؤال عن مكانتي عند من أحبهم، لأنني ولا أستطيع إخفاء ذلك بعد الآن لم أكن أحبهم بما يكفي ظننتُ أننا نشبه بعضنا، وكم أرهبني ذلك! كنتُ على استعداد مستمر يكبرُ كل لحظة بالتوازي مع نمو حضورهم في قلبي، للمضي قدمًا دونهم، كنتُ أغضب أشد الغضب عندما أفاجأ بتركي، لأنني كنتُ قد سبقتُ الآخر للخلاء دونه، لكنني بقيتُ كما لو أن هذا هو البديهي للغاية، أن ندرك تمامًا أننا لسنا في حاجة لبعضنا، لكننا نبقى رغم ذلك، أليس هذا هو الحب؟ أن نقاوم طبيعتنا والبديهة؟

كان لديّ صديقة، ظلت تحوم حولي كثيرًا، في صف الفلسفة السياسية، اخترتُ الكرسي الأخير تمامًا بجانب الجدار، لا أجيء للصف إلا عند دخول الأستاذ وأخرج منه عند خروجه، كانت غرفتي تقع على مسافة 600 متر من موقع المحاضرة، هذا ما اضطرني للتأخر عن الصف، لم يكن إعراضًا عن الآخرين، لم أنشغل بتجنب الناس أبدًا، على الأقل لم يحدث هذا في ذلك الحين، كنتُ المفضلة لدى أستاذ المادة، لطالما أحببتُ صفوف الفلسفة، بدوت لزملائي الطالبة النجيبة التي لا تريد التحدث مع الآخرين. في يوم من الأيام تفاجأتُ بهدية باسمي عند بوابة السكن الجامعي، مع رسالة من صفاء، قالت لي إنها تحبني كثيرًا رغم صمتي، ويعجبها صوتي، ورقتي، وخجلي الذي يظنه الآخرون كبرياء، في اليوم التالي ذهبت للمحاضرة قبل موعد الدرس، توجهت لمقعدها وشكرتها بحرج المنكب على أداء الصلاة بعد كفر، كان ذلك في آخر شهرين لي في الجامعة، لم تسمح لي صفاء أن أواصل العيش في السكن الجامعي، رغم أنني كنتُ أحب غرفتي هناك أكثر من أي شيء آخر،

أصرت على دعوتي لبيتها، ولبيتُ هذه الدعوة، حزينة لخسارة أيامي الأخيرة في الغرفة، ومبتهلة لأن هذا سيسعدُ صفاء، أليست المعادلة نفسها؟ كان كل شيء على خير ما يرام، حتى موعد سفري بكت كثيرًا في المطار، وبكيتُ بكل تأكيد، ثم ومنذ اليوم التالي لم تعد صفاء ترد عليّ، ظننتُ أنها تقاوم الحزن بهذه الطريقة، لا تريدُ الاعتراف بخسارتي، لكن وكما اتضح لي بعدها أنها لم تعد مهتمة لأنها سمعت من زميلة لها في الجامعة، أنني تحدثتُ عن علاقتي بشاب أحبه، وكرهتُ أنني لم أخصها بتلك القصة المثيرة.

من يعوضني أيامًا من الوحدة في غرفتي التي لا يسمح لي اليوم بزيارتها، بل والأكثر مرارة أن السكن أغلقت أبوابه هذا العام نظرًا لافتتاح الجامعة موقعًا بعيدًا في الشدادية. العلاقات تشبه خلقنا الأول، الصدف تحكمها، ثم العبث، أي شيء يستطيع أن يفسر لك ما الذي حصل بالضبط، ولماذا لم يحدث بطريقة أخرى. قالت لي صديقتي الأقرب: "يومًا ما لن نعود صديقتين لأن شيئًا لا يبقى، لكنني متأكدة أننا سنكون مستعدتين لهذا الموقف حينها، لن نكون حزينات، سيكون الوقت المناسب. ألا يبدو هذا كما لو أن هنالك دينًا قائمًا بحد ذاته، يفسره كل شخص حسب هواه، دون اعتبار لخصوصية كل تجربة، ولا فرادة كل إنسان؟ أيبدو حتميًا وفقًا لهذا كله أن نصدق أن كل شيء يذهب، حتى أولئك الذين نتخلى عن زهدنا لأجلهم؟ ألا يبدو هذا كريهًا؟ هذه النبرة الجازمة في الحديث عن العلاقات واستمرارها؟ ألا يزعج هذا أحدًا أي أحد في هذا العالم لكي أحبه؟ وعندما يحدث أن ننزعج هل ندخل فورًا لطائفة المقاومين السذج، الذين يحسبون أنفسهم الناجين من تفاهة هذا العالم وشره؟ بصراحة لا أريد أي طائفة، ولستُ أحاول أن أثبت شيئًا لا لنفسي ولا للآخرين، أعجز عن فعل ذلك، كما أن الأمر لا يخلو من نرجسية طافحة، ورغبة غير صادقة في الشيء لذاته، هي ليست إلا كذبًا، بل وأشد من ذلك، إذ أنك

تشتبك مع إنسان آخر فيها.

تحملتُ أشياء كثيرة منذ زمن بعيد، وكنتُ أكره أن يتركني عمي في بيت الجيران، لأن أحدًا لا يوجد في بيتنا، كنتُ أحاول كثيرًا أن أدفعه للتصديق بأنني سأنجو لوحدي، كنتُ في الخامسة إذن عندما عرفتُ -بفطنة بدائية- الحقيقة. وهأنذي في السابعة والعشرين من عمري، كُسرت أجنحتي، وأخيرًا لم يعد هنالك أحد، ولا ينبغي عليّ أن أستمر في كذبة التخلي من أجل الفوز، لن ألعب أدوارًا بعد اليوم. سئمتُ ضجر العلاقات، التمنع، الصدود، الولع من أجل الولع، رطانة رسائل الحب، محاولة تبرير الحب للآخرين بطريقة تمحو المحبوب نفسه، فلا يعود إلا فكرة، فراشة في الأجواء، يا إلهي، صارت لي وحدتي بعد كل هذا الوقت. ثم حدث ما لم أظن أنه سيحدث، فهمتُ جيدًا، لماذا تبكي سمية لأنها لم تجلس مع إبراهيم ليتحدثا اليوم وجها لوجه، رغم وجوده معها، فهمتُ لماذا تضع نادية صورة معاذ في بروفايل واتس اب، فهمتُ أكثر لماذا كنتُ أتخلى عن الجميع منذ البداية، لدي طاقة واحدة للحب والشوق، كانتْ منذ ولدت مرصودة لأجلك وحدك. كل شيء مر بي، ولا أريدُ أبدًا أن أبخس الناس حقهم أو أن أكتب عنهم كما لو كانوا موضوعات، لكنني الموضوع هنا، كل شيء مررتُ به كان تنويعًا على ما يعنيه إلّا تكون موجودًا في حياتي، وأريد بعنف الكلام الأول، أن أتحطم تحت جسدك، لا لأنني أريد الحب، أريدك أنت، لا أخاف تسميته بالحب، لا أخاف التناظر مع العالم، لكنني أنا وأنت سننجو.

أحبُّ أصابعك، وشفتيك، وأحب تفضيلك للشعراء العراقيين تحديدًا، الطريقة التي تكتبُ بها قبل ليلة الاختبار، أنك تقرأ غريب كامو دائمًا وتحب صخرة سيزيف، أحبُّ أنك تهبط عبر السلالم لمطبخ بيتكم، أنك تفكر في ذلك مليًا قبل أن تفعله، أحبُّ أنك تقول لي حبيبي بدلًا من حبيبتي، أحبُّ أنك تحدثت عن أزمة دارفور في صف دراسي، أحبُّ أنك

تقول لي أنتِ مكاني، ذلك أفضل كلام الحب، أحبُّ كسلك في الساعات الأولى بعد صحوك، وأحبُّ أن انزعاجك البادي من حضور الآخرين يزعجك، أحبُّ أمك، وأسنانك الأمامية، وأريد اقتلاع أسنانك الداخلية بلساني، أحبك ولا أطيق فكرة التخلي عنك، ولا أفهم كيف يمكن لذلك أن يحدث أصلًا؟ كيف أستطيع أن أمشي دونك، أن أفكر في الأرض دون أن أعرف بأن لقاءً سيجمعني بك. يا الله كيف حدث هذا كله؟

مدينةٌ بلا أسرار

كانت المشكلة دومًا في هذه البلدة، لا انعدام الحب فيها، بل أن طبقات من الحميمية والحرارة والهوى معلقة في فضائها ومكتومة، أكثر مما يستطيع سكانها الشعور به، لطالما تخيلتُ وأنا أمشي في شوارعها المفتوحة، وغير الملغِزة، أنني أصطدم بذرات صغيرة من الدفء الإنساني، إلا أنني ودائمًا لم أكن أمسكها بيدي.

تتوزع الأيام في هذه المدينة على مساحات مفتوحة، إذ لا شيء يبدو مغلقًا، أشد ما يبغضه الفضاء فيها هو الغموض، ذلك الشيء الذي هو النقص الفاضح، كل شيء يبدو وقد حلَّ سابقًا عن كل سؤال، عندما يغلق مقهى كان قد افتتح قبل عام، تتعلق أعيننا بالأمر قليلًا، لكن ذلك لا يتجاوز دقيقة واحدة ثم نمضي، إلى أين؟ إلى التالي دون أن نريده نهائيًا، ودون أن يؤرقنا أنه ليس الأخير، وكنا دائما لا نتحمل مشقة عدم التعلق، إذ أننا لا نعرف ما يعنيه أن نرغب في شيء لهذه الدرجة.

تحت غرفتي، أسمع عند الرابعة مساء منذ دخل الشتاء الذي ليس شتاءً تمامًا إن صدقتُ القول، أصواتًا تتعالى لأطفال يتدربون على الكاراتيه، أصواتًا ربما كانت جهورية مذ ولدت والآن تتطاول إلى سمعي، أسمعُ صيحة المدرب، تليها أصواتهم التي يتأخر بعضها، في البداية لم أكن أريد أن أعرف أكثر من ذلك. ثم عندما بدأت أنزعج من الأمر، قررتُ أن أنهض من على فراشي، لأشاهدهم وهم في حالتهم تلك، كان المدرب يبدو بائسًا في لباسه المهمل وحزامه المعقود كيفما اتفق، ضاربًا صورة مدرب الكاراتيه التي في رأسي عرض الحائط، والأطفال ناعمون في أرديتهم، لا ينتمون لهذه المدينة كما ألاحظ من ألوانهم، أفهم أنهم يقطعون فراغها بهذا النشاط، الذي اختاروه لأنه الأقرب لبيوتهم ليس إلا، لابد وأنهم من هذه المساحة المسورة التي تتشارك معها العمارة التي أسكن فيها الجدار،

ماذا يسمون تلك البيوت من هذا النوع، لا ليست حيًا، لا ليست ما يخطر على بالكم الآن، لا إنها لا شيء عندما يتعلق الأمر بهذه المدينة.

كان على شاشة تلفزيون الغرفة الذكي، ولساعة ونصف، مجموعة من المقطوعات الموسيقية، تحت تسمية مبتذلة (peaceful music) صورة زنبقة صفراء وحيدة، أمام خلفية زرقاء تتخللها سحب، وخيوط تشبه الضوء، ثم وبآلية وبعد أن انتهى المقطع، نقلني مباشرة لساوند تراك فيلم إيميلي الشهير. في هذه الأثناء كنتُ أقرأ "الرفيق" لبافيزي، فبعد أن انتهيت من روايته الصيف الجميل، وجدت صعوبة في الانتقال لكتاب آخر، جربت "ابنة البابا" للإيطالي اريو فو ورواية "ثلاث نساء قديرات" للفرنسية ماري ندياي التي أحببتها في رواية طقس سيئ. لكنني أخيرًا مع بابلو، أمام الدكان الذي يدخن فيه، يفكر فيما إذا كان الشغل مهمًا بالفعل! ففي المحصلة تظهر أمارات البؤس على كل الوجوه التي يصادفها والتي تتعرض للبرد ذاته طبعًا. أما أنا ففي رأسي تدور فكرة واحدة، لا أعرف طعم الساعات الأولى من الصباح منذ فترة طويلة، ولا برودة الفجر، عندما يحين موعد إجازتي، سأرتب حقيبتي وأعود للقرية، أستيقظ عند الخامسة فجرًا، أمشي للمزرعة، وأنتظر رطوبة الصباحات، وأستمع مجددًا لخشخشة أقدامي على ترابها، ولا أفكر بشيء عدا ذلك، كيف أستطيع أن أنفذ هذا المخطط الساذج، وأنا لا أنام قبل الساعة السابعة ولساعتين كحد أقصى كل يوم.

أتذكر الكويت كالعادة، أتذكر المسافة بين سكني ومقهى ستاربكس، التي لا تكفي لمكالمة أطول من ثماني دقائق معه، لكنه يصر أن يبقى على الهاتف حتى أقطع الشارع الوحيد، وعندما أصل أنهي المكالمة بعد أن يترك قبلة صوتية معلقة في أسلاك الاتصالات الباردة، أفكر في بعض الأحيان، بطريقته التي يغني بها "في أميرة صغيرة انخطبت بكير" ضاحكًا من تفضيلي لأغنية "خدني يا حبيبي" لفيروز، أقول له دائما:

"خدني يا حبيبي عبيت ماله بواب". والآن هذه مسقط، ما الذي سأتذكره منها بعد خمس سنوات، ربما سأتذكر أنني قضيتُ وقتًا طويلًا، أتفادى أغنية خالد الشيخ، أو أضحك من بساطتها في أحيان أخرى، مطلعها الذي يقول "مدينة جروحي الصغيرة" هل جرحتني مسقط بالفعل؟ هل تقوى على ذلك؟ لا أحسُّ بأنها تستطيع، إذ أنها خلاء، وحرارتها الداخلية مهدرة، ولماذا لا أحد يغني لياليا هنا؟ هل لأن حروبنا قديمة؟ هل لأن الجبال أقفلت على السر؟ وتركته هناك لمن يريد، هل لأنني بعيدة عن الجبل بُعدي عن نفسي؟

كنتُ أتحدث في البرنامج الإذاعي الذي أقدمه عن تأثير تصميم الأحياء السكنية على رأس المال الاجتماعي، وعن التمدد الأفقي الذي كلما زاد طالت المسافة بين البيت وأي وجهة، ما الذي صار في بلادي ليصبح الوصول صعبًا؟ وكيف نردم كل الأسئلة، ونخمدها؟ نمشي؟ نتحول إلى مشائين، فربما كانت الإجابة في طريق جانبي، في حارة صغيرة، في ميناء مطرح؟ في رائحة القماش الكشميري الملون الذي يباع في السوق كما لو أنه ثمينٌ هنا بصورة خاصة، أو خواتم الفضة التي يقول الصائغ إنها عمانية؟ أو ربما يكمن السر في أن الحب هنا والقبلات تحدث بين جثتين، باردتين، ولهما خطوات مقتولة في القرى الصغيرة، قرى لا تشيع فيها النمائم، ولا يحفل فيها أحد بشيء سوى سؤال واحد: "متى تمطر حسب آخر الأخبار؟" كأقصى أحداث الحياة تراجيدية، كآخر ما يمكن أن يُدمي، كاحتمال وحيد لشيء يحدث بالفعل ويترك أثرًا واضحًا، تمطرُ، هل تمطرُ في الصيف؟ هل يطول الصيف هذا العام، لا نستخدم مفردةً كبيرة مثل "التغير المناخي" لا نقول شيئًا يعرفه أحد سوانا، نستخدم قاموسنا المقتصد، ونتلكأ كثيرًا، أمام الحب الذي يمكن أن ننضوي تحت جناحه بينما كل شيء في الخارج، سيحدث دائمًا ولن يرحل، لكننا في الداخل لدينا فرصة واحدة قبل أن نموت.

أمشي في الشوارع المفتوحة، أحاول أن أمسك بقطرة دافئة، في رطوبة الهواء الخانقة، أعرف أنها هناك، لكنني لا أمسكها بيدي.

الغربي

تهب ريح حارة، كل ما أتذكره عن هذه العواصف، أنها تسمى بـ"الغربي" وعندما كنا صغارًا، كنا نرى آباءنا وأمهاتنا يقفون على سلالم البيت الأمامية، ينظرون بصعوبة إلى مزارعهم في نهاية مرمى أنظارهم، قلقين على شجرة بعينها أحيانًا، وعلى النخيل وثمارها، وفور أن يهدأ الطقس، فإن أوّل من يزور المزرعة، يعود ليخبر الجميع بمصيرها، ثم يبدأ الناس بالتوافد عليها، أهل البيت، والجيران والضيوف، الجميع يزور الشجرة المنكوبة لأيام متواصلة، ولا يتعب أبي من إعادة مواصفات الشجرة التي طوحتها الريح، وفي آخر مرة كنا خسرنا شجرة مانجو، يدّعي أبي أن عاملًا لديه أحضر بذرتها من الهند، وأن ثمرتها أول الأمر كانت حامضة جدًا، قبل أن يعرف أن ذلك الهندي قد قتل زوجته وهرب من بلاده، لكن أبي أقنعه بالعودة من أجل أبنائه، ومنذ ذلك الحين والشجرة لا تثمر إلا حبات مانجو حلوة جدًا، لم يكن الكدر مباغتًا ذلك الذي يصيبني عندما أسمع صوت الريح، أشتمُّ رائحة الموت، كما لا أحبُّ أن ننتظر شيئًا، على غير عادتنا في مواصلة أيامنا دون أن نشعر بأننا نقطعها، لم يكن هذا واضحًا ذلك الحين، أعني أنني كنتُ أحس بهذا لكنني لا أفهم ما هو.

كان هبوب الريح في ذلك اليوم ناعمًا أول الأمر، الأشجار تتمايل برقة، عمي يُعلم أبناءه كيف يصنعون طائرة ورقية، يستخدمون عصا النخيل، مثلث يقطعه ضلع في المنتصف، ثم يضعون حاويات التمور البلاستيكية قماشة العلم الذي سيرفعونه إلى فوق، كان كل شيء هادئًا، وكنتُ عندما أسمع أصواتهم التي تقطع ذلك الحضور الجسدي لوداعة كل شيء من حولي، أتخيلهم يركضون في المساحات الخالية خلف البيت، ينظرون إلى فوق، فيما تصطدم أجسادهم بعضها ببعض ثم يدخلون في نوبة ضحك عارمة. رائحة الخبز الذي تصنعه أمي تجعل البيت دافئًا، أبي يصرخ بأن علينا ألّا نذهب خارج البيت دون أن نرتدي أحذيتنا حتى وإن

غابت الشمس، لم يكن أبي من هذا النوع، أعني ذلك الذي يهتم بشأن حذائي، لكنه شاهد عمي قبل أيام يهدد أبناءه من الوقوع في هذا الخطأ، لكن حفيف الأشجار صار أقرب إلينا، عرفتُ حينها أن خسارة وشيكة تقترب. كان ابن عمي الأصغر يبكي بشدة ولا يريد العودة إلى البيت قبل أن يطلق طائرته الورقية. لكن حرارة تلك الريح وصخبها، كانتا أقوى من أي إحباط طفولي، كنا عدنا إلى البيوت، أبي يخرج للسلم كلما هدأت العاصفة قليلًا، وأمي تتبعه، وينهرها لذلك، لكنها تعود في كل مرة. كل هذا كان يصيبني بالخوف الشديد، كنتُ لا أعرف ما عليَّ فعله، هل ينبغي أن أصلي؟ لم أعرف ذلك أبدًا.

كنا نسمع عويل الأشجار، وننتظر. ثم توقف كل شيء قبل أن تمطر بغزارة، كنا سعداء بالمطر(2)، أبي عاد من السلالم، وأمي تجلس في غرفتها دون أن تراقبه بعد الآن، يدعو الله ألّا يصيب أشجاره أي مكروه، لكن ذلك الصفاء لم يدم لأكثر من ساعة واحدة قبل أن نسمع عويلًا مختلفًا هذه المرة، كان عمي قد أضاع طفله الأصغر، ارتدى الكبار معاطفهم وأشمغة غطوا بها أعناقهم وآذانهم، وانطلقوا في البحث عنه، كان ابن عمي محتضنًا طائرته الورقية، في وسط الشارع، مستسلمًا بوحشية للموت، ربما دهسته سيارة مسرعة، كان كل شيء كئيبًا، وكان يرتدي حذاءه، نظر أبي حينها نحوي، كنتُ في الخارج لم أستطع أن أنتظر أكثر، جاء إليّ مسرعًا وضربني بعصا الطائرة الورقية لأنني أمشي بلا حذاء، كان يصرخ كما لو أنه جن، غدت ركضًا إلى البيت، وشوهد أبي تلك الليلة يمشي باتجاه المزرعة. وأمي ما زالت على السلالم ترقب شيئًا ما، عودة الأشجار وأبي.

انقلابات

هنالك أحداث تبدو في الظاهر سعيدة جدًا، لكنها ولفرط ما آلمتني لا أعود أتذكرها إلا إذا حدث عارضٌ كبير يذكرني بها. فكرت في هذه المسألة اليوم بعد أن تذكرتُ أنني وفي عمر الثانية والعشرين وبينما كنتُ عائدةً من مطار مسقط إلى البيت، عرضتُ على أبي ووجهي وصوتي يفيضان بالحيوية، أن أقرأ له قصائد محمد الثبيتي. وفعلتُ، لم يعلق أبي أبدًا لكنه ظلَّ مستمعًا حتى بدأتُ أرتابُ من صمته. لقد نسيتُ في فورة حماسي تلك أن أبي يطلب مني أن أكتب له رسائل الواتس آب العادية، لأنه لا يثق من قدرته على أن يمليها جيدًا، خشيتُ في تلك اللحظة أنني أحرجتُ أبي، وعلى الرغم من أن القصائد التي اخترتها من أعمال الثبيتي الكاملة التي كنتُ أحملها في حقيبتي، دارت كلها عن الصحراء، إلا أنني عرفتُ في تلك اللحظة أن صحراء أبي مختلفة.

تعلقَ هذا المشهد في ذاكرتي كما لو أن الحياة تبتزني به، إذ تريني أنني أيضًا لم أكن رحيمة في وقت من الأوقات كما ظننتُ دائمًا، أحاول أن أشاهد نفسي على المقعد بجانب والدي في السيارة، أن أتذكر مواقف أخرى، فمع أنها محدودة، ومع أن انفرادي به، لم يكن إلا في لحظات اضطراري للذهاب إلى المطار في مسقط، إو إجراء مقابلة عمل بعد التخرج، إلا أن هذا الوقت كان خاصًا بتربية الخوف، ليست الرهبة من سخطه وغضبه، بل من تلطفه، من انكساراته القديمة التي يحبُّ أن يذكرنا بها لكي نأخذ منها دروسًا وعبرًا. لقد أحببتُ أبي كثيرًا، وشعرتُ طيلة عمري بأنني مسؤولة عن كل ما حدث معه، قال لي مرة، إنه لكي لا يطلب شرب الماء ممن استضافهم ليلعبوا معه، شرب من ماء البحر.

يحدث الأمر مجددًا في يوم ذكرى اغتيال غسان كنفاني، استدعت ذاكرتي، ذلك اليوم في كلية الآداب بجامعة الكويت، فرع كيفان، وأنا

أجلس فيما يسمونه "شارع الحب" لثاني مرة منذ أن دخلت الجامعة قبلها بعامين، لأن بنات صفي اتفقن على أن نحتفل بعيد ميلاد زميلة لنا هناك، سبقتهن بحكم عيشي في السكن داخل حرم كيفان، وكنتُ أحمل الأعمال القصصية الكاملة لغسان، وفي كل مرة يأتي فيها على ذكر الكويت، أو يوقع من هناك، أرفع رأسي المستغرق في زيتون ونضالات حيفا، لأراقب الحب الذي يتحدث عنه زملائي في الكلية عندما أطلقوا الاسم على هذا الممر، لكنه ليس موجودًا، أو على الأقل لا أستطيع تبين معالمه. جلستُ في ذلك المكان طويلًا تنعشني كتابة كنفاني، والضجيج الهادر من تجمعات الطلبة، وعندما حان موعد الاحتفال، ضحكنا كثيرًا، لكن فكرة عبرت إلى رأسي، كان كنفاني يستعدُّ للموت هنا بالتحديد دون أي مكان آخر.

مقاس قدميك

أتمنى لو تغادر، ففي ذهابك سينعدم الأمل، ولن أرجو أكثر مما تعطيني، أشعر طوال الوقت أنني أقف على حبل لستُ متأكدة حتى أنه معقود من جهتين، سأسقط سريعًا، وإن كنتُ سأفعل فلا أريد غير يأسي التام لأسقط فيه. قبل عدة أيام حدثني صديق عن رفضه لعقد عمل، دون أن يخبر زوجته التي يحبها بذلك، قال لي مؤكدًا أنها ستفقد تأمينها الصحي إذا ما قبل هذا العرض الجديد، ولأنها ستوبخه لم يصرح لها بهذا، كان يكتب يا حبيبي بسرعة، كأنها القذيفة في انطلاقها الأزلي، لم يكن يهمه ذلك، كان يريد أن يقول لي إنه يحبُّ كثيرًا. لستُ أحبك بالطريقة نفسها، لا أحب الحب يا حبيبي، أحبك أنت.

لو كنت تنظر لي كما أنظر لنفسي، لفهمت لم كل هذه الأسئلة، عندما أستيقظ في الصباح، أتخيل أنني مغطّاةٌ بالعار، أنني أسبحُ في بحر وسخ، والعالم من حولي يزدريني، ولا أتمنى شيئًا في ذلك الوقت غير أن أختفي بالسرعة نفسها، التي تذوب فيها كلماتك المُحبة في صدري، وأنظر إليك، تحدقُ فيّ ولا تقول شيئًا، فتمحى كل القصائد التي شاركتها معك، وتصبح القصيدة التالية، كما لو أنها قصيدة أخرى ليس إلا. آه يا حبيبي لو تعرف ما الذي يحدث معي؟ وكيف أنني أفهم عبودية الحب، أفهم أن ما أريده مُخز هو الآخر، لكنني انتظرتك طويلًا لأنفتح على الخطأ، على الحياة في جوهرها الحقيقي، قذرة، ومدنسة، لكنها هي ما ينبغي أن يعاش.

أنظر لصورتك، فيرتعش كل شيء فيّ، قدماك اللتان لا أعرف مقاسهما بعد، يعذبانني، ورائحة جلدك في زمن آخر غير زمني، حبيبي الذي لا يراني كثيرًا. كفّي، بها خطوط كثيرة، وجلد يدي من الداخل مترهل، لستُ حتى قوية في يدي، لطالما أخافَ ذلك عمّتي، كنتُ أقول، يدي تمساح

صغير، يدي فضيحتي الأولى، حبيبي الأول، هل تعرف ما يعنيه أن تكون ضعيفًا في يدك؟ وأن تحتاجها في كل وقت، وأنها لا تريد شيئًا، ولا تستطيع شيئًا إلى الماء، فالطريق الى المحيط موتي، حبيبي لماذا تدعني وحدي في هذا كله؟

ما الذي أريده منك، قليلًا لينزاح عني هذا التعب الموغل في إبهامه، الذي يتوزع على جسدي كهالة تحيط به، قل شيئًا أرجوك، قل شيئًا، ولا تتركني، فيا إلهي "لماذا ستتركني وحيدًا لمرة أخرى(3)؟".

تقول لي إنك كنت تنام وأنت تكلم حبيبتك السابقة، وإنها تشاهدك بينما تفعل ذلك، ولا أتمالك نفسي ليس لأن هذا حدث، بل لأنني أخاف حتى من أن أطلب منك ذلك، أخاف أن أحرجك، أن أتعبك، أخاف أن تتحملني حبيبي، أتعرف ما الذي يعنيه ذلك بالنسبة لشخص مثلي؟ أرجوك اذهب، اذهب إلى المستحيل فعلًا، ولا تكن مستحيلًا مراوغًا كما أنت الآن، فأنا محطمة، ولا طاقة بي على تفادي صمتك. ولا أستطيع لا أستطيع أن أطلب رؤيتك تنام وتحلم.

لماذا يحصل هذا معي أنا؟ ألستُ جديرة بالحب؟ أم أنني في كل مرة أظن فيها أنني وجدت الحب، ألاقي عدمي؟ إيماني الحقيقي بأن لا شيء هنا ولا هناك، وبأن العالم وهم كبير وحزين. هل عليّ أن أغير إيماني لتجيء إليّ؟ أي باطل سيكون ذلك؟

غاضبة، نسيتُ رقة الحب، وتجتاحني رغبة قتلك، أو تركك وحيدًا، لكنك لن تكون وحيدًا، ذلك أنك وحيدٌ الآن، وأنا لستُ أكثر من كائن مضبّب يحوم حولك، شبحٌ صغير، سيموت متى ما فتحت باب الغرفة، ومتى ما مشيتَ وحدك في الطريق حيث المقهى الذي تجلس فيه دومًا. حيث الآخرون دومًا يمكنهم أن يقولوا كل شيء لك، وأنا لا يمكنني أن أنطق باسمك، مخافة أن تحس بأنني أشير إليك فأحبسك.

مصطلحات على طاولة الطعام

كان لديها ذلك النوع من السذاجة إلا أنها تملك تطلعات تعتقد أنها كبيرة. تريد أن تمتلك جسد رجل لا لكي تقبله أو تضاجعه، كانت تريده لأن دم الإنسان يبدو لها دافئًا، وتريد الدفء هذا بأي ثمن كان. هذا ما سعت إليه في حياتها منذ البداية، لكنها اليوم وفي فراش هذا الرجل، بعد أن نام عنها في هذه الساعة المتأخرة من الليل، تفكرُ في أنها لم تقرأ يومًا معنى كلمة "دفء" في القاموس، وأنها بلاغيًا قد لا تعرف ما تعنيه هذه الكلمة، وأنها في كل القصائد التي قرأتها فيما مضى من حياتها كانت تحسُّ بشيء ما يثب إلى روحها، يلدغُ جلدها، شيءٍ يغمرها من الداخل لكنها لا تفهمه.

هل ينبغي أن يأتي ذلك الشعور من مكان سحيق، أو أنها وبمجرد أن تمسح على سطح هذه العلاقة سيبدو لها ذلك الشعور الهائل الذي لطالما تخيلته ولم تعرفه. هذا المساء ستعود إلى بيتها الصغير، حيث تسكن مع صديقتها، وستفكر كثيرًا في ذلك، ستحاول أن تشرحه طويلًا، لكنها ستيأس في نهاية الأمر.

لم تعتد صديقتها وجود رجل في حياتها، فعندما تتركها في المساء يبدو أنهما على وشك أن تفقدا كل شيء حتى الخردوات المجتمعة في سقيفة البيت، كل شيء مهدد بأن يصبح لاثنين بدلًا من واحد، كيف يمكن اقتسام الخيمة البلاستيكية التي ابتاعتاها في الشتاء الماضي؟ كانت تستعد للخروج فعلًا، تضع قرطًا ثمينًا، لكنها وقبل أن تخرج، تستدير إليها، تطلب منها أن تساعدها في خلعه، وبعد أن تفعل، تقول لها يمكنك تركه على طاولة الطعام في الصالة، سآخذه في وقت لاحق، لا تسألْ أبدًا: لماذا طاولة الطعام؟ لم لا نضعه في خزانتك؟ في صندوق مجوهراتك؟ لا تسأل أبدًا ذلك السؤال. وفي كل مرة كانت تخرج فيها، كانت تترك شيئًا

على طاولة الطعام، ليس بالضرورة في زاويةٍ محددة.

هي لا تمتلك بريقًا خاصًا بها ولعل ذلك ما يميزها، عرفتها في مكتبة، كنا نبحث عن كتاب ولم يكن هنالك إلا نسخة واحدة، ضحكنا كثيرًا يومها، عرفت بعد ذلك أنها لا تحب الغرباء، لكنها ألفتني سريعًا، اشترت الكتاب بعد إلحاح مني، لكنها وبعد ذلك حصلت على رقم هاتفي من المكتبة واتصلت لتعطيني نسختها بعد أن قرأتها، صرنا صديقتين مقربتين، مضت على صداقتنا خمس سنوات. في بعض الأيام لا ألقاها أبدًا، رغم بابينا المتقابلين، تحب غرفتها، حتى إننا اتفقنا -ساخرتَين- على تسميتها بالوكر، وحتى في تلك الأيام التي لا نلتقي فيها، أجد نصيبي من وجبة العشاء على طاولة المطبخ، لا أذكر أبدًا رغم علاقتنا الوطيدة أننا تحدثنا عن عشاقنا.

غطاء السرير يحتوي حرارة جسديهما، التي تخفت ببطء كلما اقترب أحدهما من النوم، يلكزها بساعده وهو يستدير إلى الجهة الثانية، تحملق فوق، شاردةً في هذا كله، هل ينبغي عليها أن تظل هنا طويلًا، تشعر بالنعاس، لكنها لا تستطيع أن تنام هكذا، ليس قبل أن تعرف ما الذي يمكن أن يحدث غدًا؟ لكنها لا تقوى على المقاومة أكثر.

كانت الغرفة التي يسكن فيها ضيقة، حتى إنني ومن مكاني على السرير أستطيع رؤية حذائه الذي سار به اليوم على أوراق زلقة بسبب رطوبة الجو. كان يمشي مسرعًا كأنما يتجه إلى موعد ما، لكننا كنا في الموعد، كنت معه، إلا أنني اعتدت ذلك منذ زمن لم أعد أتذكره، توقفَ أمام السيارة إلا أنني لمحت في نهاية ذلك الشارع مقهى جانبيًا، بدا كما لو أنني أراه لأول مرة، في ذلك الشارع نفسه الذي نقطعه باستمرار كلما أراد أن يشتري أقلامًا ودفاتر للمحل الذي يمتلكه، قلتُ له: أريد قهوة من هناك، مشيرة إلى المقهى. قال إن الوقت متأخر ربما نعود غدًا.

في الصباح ستتركه نائمًا في الفراش، قبل أن يستيقظ هذه المرة، وفي طريق العودة إلى البيت، ستختار الطريق نفسه الذي كانا فيه البارحة، ستأخذ قهوتها من ذلك المقهى نفسه أيضًا، تحسُّ نوعًا من التشفي في قيامها بذلك، ثم تعود إلى الشقة، حيث طاولة الطعام، تبكي كثيرًا أمام الكتاب الذي تركته ليلة البارحة ولم يكن هناك.

Page ٣٦ / ٨٣ مصطلحات على طاولة الطعام

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨

القطة التي لم يكن لها بيت

عند منعطف الشارع المؤدي إلى مقهى كاريبو الجديد-فرع الخوير، كان ثمة قطة صغيرة سوداء تعرج باتجاه المدخل، خففتُ من سرْعة السيارة، ومتوخية الحذر من المركبات القادمة من الخلف شغلتُ الإشارات الأربع، وانتظرتها تمر، كان هنالك سيارة خلفي بعدها بدقيقة واحدة، ولأن سائقها لا يستطيع أن ينظر للقطة مثلي أطلق بوقَ سيارته، مما أصابني بالارتباك، وحين أصبحتُ بعيدة عن مرمى عجلات سيارتي الخاطفة، أطفأتُ الإشارة وقررتُ العودة للبيت.

أحب أن أعيش في مكان آخر، في دولة أخرى ربما، بعيدًا عن هنا، بصراحة لا تشغلني مسألة التعبير عن الرأي، ولا أريد تحقيق مجد شخصي في عمل لا تتوفر عليه هذه البلاد، لكنني متعبة من الأيام الحارة المشمسة، وأريد فصولًا حقيقية، أريد كآبة الشتاء، وفكرة التمدد على الشاطئ صيفًا، وإنذار الزهور الأولى بدخول الربيع، وعند الخريف، أريد أن أتمتع بكل كليشهات التساقط والرحيل وأن أعبّ الهواء الخريفي، حتى أتعب. يومٌ عادي، هذا ما كنتُ أعيه تمامًا حتى وإن لم أصرح به لنفسي، إلا أن القطة جعلت كل شيء مختلفًا على نحو ما، كنتُ أحس بأنني في حال أسوأ بالنسبة لآلامي اليومية.

لا أتذكر بالضبط أين قرأتُ أن كل شيء مرتبطٌ بالدفء، لكنني أستدعي وبذاكرة حادة، إشارة للدنماركي توم كريستنسن في روايته "هدم" أو على وجه الدقة صوت الراوي مَن صدح واصفًا اجتماع الأصدقاء في صالة بيته كوميض كهربائي بارد، يمكن أن نواجهه في ليلة شتوية ونتجمد، على العكس من ذلك، أحسُ بسيولة الأشياء، وبأنها لن تتعافى! ممَّ؟ لا أدري على وجه التحديد، ربما عدم الرأفة، أو الاستعجال، أو تبديد كل شيء في المكان الخطأ. ما قيمة هذه المواقف التافهة؟ أشغل

موسيقى شوبَن في غرفتي الواسعة، التي جردتها من كل الزخارف والأشياء الجميلة، لكي تبدو رصينة ومحايدة، ومناسبة لي، على الجدار بجانب السرير لوحة قصيدة صغيرة بعنوان "أسباب جوهرية لعدم بدء علاقة وإنهائها" ومطلعها: "ضرورة الاستحمام بانتظام/ طلاء الأظافر مجددًا كلما قشرت أطرافها"(4).

خطر لي عندما قرأت رواية "إلمت" لفيونا موزلي، أنني بتُّ أعرف الطريقة التي سأكتب بها قصتي، فبعيدًا عن أجواء هذه المدينة، وهذا الضجر الذي هو "هويتي" والشيء المعدني المرتبط بها، وكل التخييل الذي يشرع الذاكرة على الدهاليز الممكنة، والزوايا التي لا يعرفها أحد، والإضاءة التي تكون عادلة في يوم صيفي بالنسبة لحبيبين يبحثان عن فرصتهما، والشقق المليئة بحشرات الصحراء، والعباءات الفضفاضة كموضة الفصل، والحديث اليومي عن إجازة الصيف، ومتابعي المدونات التي تجيب عن أسئلة "كيف" والتي تمنح قواعدَ للعيش الصحي، أنا لم أخرج من تراب القرية، و في يدي أصابعها، أما لغتي فهي ذلك التردد في كل شيء يتعلق بها، كأنها لم ترغب في أن تكون. كل المزارع، والنساء اللاتي يخرجن منذ الصباح لحلب الأبقار، أو السير خلف المواشي بينما ترعى من أشجار السمر، هذا ما يخصني رغمًا عن غربتي الكبيرة فيه. وبعد ذلك كله، وجدتُ نفسي أكتب قصة مطلعها "إرادات خارجية، هي التي أبقتني مع زوجي حتى بعد مرور خمسة عشر عامًا على زواجنا، أتخيل الفم المفتوح لابنة خالتي التي لم أرها منذ عشر سنين، تفاعلًا مع نميمة طلاقي، فأعدلُ عنه." إذن لا عودة لي حتى في الكتابة إلى اغترابي الأول؟

على يوتيوب موسيقى شوبن مجموعة في مقطع طويل يمتد لساعة وعشر دقائق، لا أسماء ولا إشارات، وصورة فان جوخ ليلة مليئة بالنجوم، وسيل من انعدام الدفء يصطدم بالقصيدة الوحيدة في خلاء الجدار.

تتعلم أختي الإنجليزية، تنطق كلمة (door) وتضحك، وتردد بعدها دو ري مي فا صول لا سي، أما أنا فيزعجني ذلك، تمامًا مثل الحساسية البرجوازية لمن يضعن أدعية في تويتر بعد انهيارٍ ما، أدعية منمقة ومكتوبة بلغة جديدة، فيها رجاء غنائي، ومتأجج العاطفة، أقول لأختي: "يعني باب"، فتضحك أكثر، ربما لأنها تعرف أنه باب، لكنني أفاجئها بعدم ثقتي بها. متى ينتهي هذا الكابوس؟ وتمر الأيام، رغمًا عن جثتي؟

غشيّه شعور عميق بأنه يعرف كل شيء

كان يتمشى في مزرعة والده، يوزع نظره على الحقل المحروث توًا، ناعسًا راح يفكر في أنه لم يزرها منذ زمن بعيد، أشجار السفرجل الثلاث، في الزاوية الشمالية الأقصى، تحاوطها أوراقها التي طوحتها ريح الأيام الماضية، كان يجلس هنا كثيرًا، لعلمه أن الجميع يجدونه بعيدًا عن المنزل، وعن المكان الذي ينوعون فيه بين مختلف الإنتاج الزراعي طوال العام، هنا كوكب آخر، فلا يمكن إدراك نوافير الري الطويلة من على هذه الزاوية، لا شيء سوى أن أشجارًا ضخمة من المانجو تحول بينه وبين الجميع، لكنه لم يعد يأتي إلى هنا كثيرًا، يريد ذلك ويقرر فعلًا أن يعود لمرات ومرات كلما كان هنا، لكنه ما إن يبتعد قليلًا لا يعود يفكر في هذا المكان.

يعمل موظفًا في شركة تلكوم، يعود في تمام الساعة السادسة إلى شقته الصغيرة، في عمارة مميزة، ذلك لأنها تحتوي سطحًا، وسلالم داخلية تؤدي إلى السطح، يركن سيارته في قبو ضيق ورطب، ويشعر بقطرات العرق تسيلُ على ظهره، في المسافة الفاصلة بين القبو والغرفة، اعتاد ألّا يطفئ تكييف غرفته، تفاديًا للحرارة الخانقة في هذا الفصل من العام، يخلع ملابسه، ولا يحتفظ إلا ببوكسر علامة كليفن كلاين، ويلقي بنفسه على الفراش، عندما تلامس أصابع قدمه برودةَ لحاف السرير، يحسُّ بالراحة أخيرًا من عناء اليوم، لا ينام، لا يتقلب، يسجي جسده هناك، طامحًا في الذوبان في شبح التراخي الضخم الذي شعر دومًا بالانتماء الحقيقي له. لكنه تلقى الآن مكالمةً من أمه، مات أبوه، وسيدفنونه هذا المساء.

قام عن الفراش بتباطؤ من لا يزال على حالته الأولى، أطرافه مترامية في حالة غائمة من الكسل الغني، هرع يفكر في الأشياء التي سيحتاج

إليها الآن، بطاقته البنكية في محفظته، ثوبان بلون أبيض كما يفعل الرجال دومًا، ارتدى أحدهما سريعًا، كان ينتظر شيئًا ما في هذه الأثناء، أن يتلقى مكالمةً تطلب منه أن يعود لفراشه، ألا يكون هذا صحيحًا، أن المتصلة ليست أمه، وأنها طلبت رقمًا تظنه لابنها، تمنى لو أنه يستطيع أن يكون واهمًا، والده لم يكن مصابًا بأي مرض، لم يكن متعبًا في آخر مرة جلس فيها معه، كان ذلك قبل أسبوعين، عندما عاد للقرية، مثلما يفعل مرتين كل شهر، منذ ست سنوات. سينزل لسيارته من طراز لكزس 2005، ويقضي ساعات ذاهلًا في الطريق السريع، متخيلًا جثة والده الضخمة، ورائحة الكافور، وما إذا كان عليه أن يشتري عشاءً لوالدته وإخوته، أليس هو أكبر الأبناء، أليس مسؤولًا عما إذا كانوا بخير، حتى وإن كان بعيدًا، ألا يتعامل مع الموقف؟ لابد وأن أحدًا لن يعد العشاء هذه الليلة.

فكرة العشاء لم تكن الخاطر الوحيد في سفره ذاك، تذكر ليلة أمس قبل أن يخلد للنوم، عندما قرأ في كتاب للألماني زيبالد عن سمك الرنجة، الذي يقضي وقتًا قبل أن يموت، قدره أحدهم بساعة وعشر دقائق، يتغير لون سمك الرنجة عندما يموت، ويلمع في الهواء، جسد سمك الرنجة المضيء، كان هدفًا لبحث مخترعين ظنا أن باستطاعتهما تحويل هذه الإضاءة لمصدر دائم وحيوي للطاقة، لكن التجربة فشلت على نحو ذريع حتى إن أحدًا لا يكاد يذكرها اليوم، يشعر أنه ينتمي لهذا المحو، لهذا الصفر الكبير في هذه النتيجة، ولا يعرف لماذا تذكر هذه القصة الآن، هل تضيء جثة والده؟ هل لأن سمك الرنجة يموت أيضًا؟ كل نخلة في هذا المكان تعرفه، عندما أحب فتاة واحدة لمدة لا تزيد على سبعة أشهر حسبما يتذكر، تساءل عمّا لو كان بعد عشرين سنة سينظر لها قائلًا إن الحياة التي قطعاها معًا تستحق العناء، لكنه شك في ذلك، وربما لم يكن ذلك شكًا، كان شيئًا يشبه الحدس الموثوق غير القابل لأن يرد، لذلك

Telegram:@mbooks90

انسحب من تلك العلاقة، ولم يعد من جديد للحديث مع أي فتاة بشكل خاص، عندما يشاهد هذا المكان، مساحاته الظليلة، ورائحة السدر في الصباح الباكر، والزهور الصغيرة للسفرجل، يحسُّ بأنه سعيد ومرتاح، وبأن ما يزيد على عشرين سنة من وقوفه هنا لأول مرة يستحق كل شيء منه. هذا المكان المقطوع من الأبدية بالنسبة إليه، هو كل ما ينبغي أن يعيش لأجله، إنه غيابه على نحو لا يصدق.

أمام فكرة موت والده، ضحك في سره، لا يعرف ما الذي سيفعله بكل صكوك الأراضي التي اشتراها مؤخرًا، هو لا يحتاج المال، لطالما أثارته فكرة الرغبة في أن يبتاع أحدهم كل هذه الأراضي وهو في الخمسينات من عمره، بينما تطلب أمه المال منه ومن إخوتها لكي تشتري مكنسةً جديدة للبيت، طقم صحون جديدا، أن تعشب حوش البيت، أن تغير طقم الكنبات، أن تشتري تلفزيون 80 بوصة، كل يوم، مرتين في الشهر كان يرى أمه تتداعى طلبًا لشيء يكاد كل ما فيها يقول إنها لن تعيش بدونه، حتى الغسالة الأتوماتيك الأكبر حجمًا من تلك التي يستخدمونها في البيت. أمه التي تستخدم سيارة لاندكروزر في طرازها الأحدث، وتأمينها الذي يزيد على ألف ريال عماني، لكن أباه ليس هنا الآن، وفي مكان بعيد في نفسه، يعرف أنه اختبر هذا الشعور من قبل، ليس لأنه كره والده يومًا، بل لأنه ذلك الشخص الذي يعرف الأشياء البديهية، ويخافها بما يكفي، فإذا ما صارت واقعًا، بدا أنه استنفد ما يكفي من مشاعره لأجلها.

لا أحلم هنا بالعودة إلى غرفتي، صحيح أنني أمتلك هناك نوعًا جيدًا من البراندي، الذي يستطيع أن يدفعني للتعاطف مع بيت شعر لريلكه، كما فعلت الأسبوع الماضي، عندما كنت غضًّا مع فتاة عشرينية، شاركت المقطع عبر حسابها على تويتر، لم تكن قد أشارت لريلكه، ولم أكن لأحادثها لولا أنني بحثت عن صاحب المقطع عبر نسخه والبحث عنه في "جوجل"، لم أعرف سوى في الصباح التالي، أنني كنت أهذي لها

بأن شيئًا في تلك الأبيات غمرني، وأريد أن يتكرر هذا الإحساس مجددًا، وأنني أعتمد عليها في ذلك. حينها بدا ذلك وحشيًا بالنسبة لي، إذ لا أريد هذا كله، وقد ساءلت وعيي مرارًا عما إذا كان هذا فعلًا ما أخبئه تحت جسدي الناحل، هنا لست سلبيًا، لا أتلقى العالم، بينما ينهمر عليّ من كل اتجاه، أشعر في هذه الزاوية بأنني ذلك الذي يبتعد به في كل اتجاه، كل نأمة صغيرة، هي شظية في حلم كبير، الهواء في هذا المكان، يشبه الليالي الصيفية التي يفاجئك فيها الشاطئ، بحرارة معتدلة، فتقول لنفسك: لماذا لا آتي لهنا كثيرًا؟ مات أبي، مثلما توقعت قبل عشرين عامًا وأكثر، وحدي أنا من لا أتوقع موته، متناهٍ وأعجز عن تفسير لذلك، فليس الموت ما يقلقني فيّ، بل شيء آخر، ربما كل المشاعر البدائية التي ينبغي تقويضها، منعًا لهدر الوقت، ووقاية من اللامبالاة الفظة التي تنتج بعدها، تلك التي تشعر بها في غلافك الجسدي، لا أريد شيئًا من ذلك، يكفيني أن أبدي كل التعابير اللازمة بعفوية أكبر.

سأقتلُ أبي

استيقظتُ اليوم على شعور من يقتل أباه، تلك الرغبةُ الطفولية في أن تذهب أبعد مما نشأتَ عليه، وأن تعكس الاتجاه، الذي وبطبيعة الحال يبدأ من وجه أبيك. ربما لأنني تعبتُ كثيرًا، أو لأنني وقبل أن أنام في هذا الجو الرائق نسبيًا، فدرجة الحرارة كانت عند 22 عندما ذهبتُ للفراش، كنتُ أتصببُ عرقًا، شاهدت مقطعًا لصديقتي سارة، تقول لي فيه إنني "ألطف كائن على وجه الأرض، وهذه حقيقة لا ينبغي النقاش فيها". تحول الأمر في تلك الساعة إلى دافع للضغينة، والنفور، لا أريد أن أكون كذلك الآن، فلأقتل أبي، وليحترق كل العالم، بداية بأسفل السرير في بيتنا القديم حيث الأشباح، وانتهاءً بالطريقة التي تناولتُ فيها هذا الصباح، مجموعة قصصية لروبرت فالزر، يقول فيها: "بومة داخل جدار متهدم، قالت لنفسها: أي حياة مرعبة." كان يمكن أن أكون من محبي البوم، فتاةٌ رقيقة، ترتدي قلادة بوم، تنام بجانب تحفة زجاجية لبومة، تحمل سلسلة مفاتيح لبومة، تضعُ في مرآة سيارتها الأمامية بومة نحاسية بعيون زائغة، كان هذا ممكنًا جدًا لولا أنني انشغلت طوال الوقت بعبادة أبي.

قبل نحو عامين بدأت بجمع كتب عن الأب، وفي هذا كم أبدو كاذبة ولعينة، إذ أن الأمر حدث بعفوية أكبر، كان القدر الساحر يرتبُ لي وفي تسلسل فريد - أو هذا على الأقل ما أفعله بتجاهل كل شيء آخر – قراءات لكتب يموتُ الأبُ فيها، مالفا ابنة بابلو نيرودا، الفتاة المسكينة والمنبوذة من والدها، ومن باطن السماء، تكتبُ عن جسده المسجى على فراش الموت، كناوسغارد يكافح ضد أبيه، أو يكافح ضد نفسه، بالتأكيد كافكا، كافكا الكثير جدًا في رسالته لوالده، وقصص متناثرة هنا وهناك. ثمة طبعٌ حاد في هذه الرغبة بالانتقام، مما نحبه لهذا الحد، أليس الحب والكراهية وجهين لعملة واحدة كما تقول كل الدراسات التافهة لطبيعة

سلوكنا، آه طبيعة سلوكنا، كما لو أن هذا محدد ومفهوم ويمكن وضعه في درج، مثل قطعة ملابس أخرى، أو فردة حذاء، أو سندويشة مؤجلة. كم أكره هذا العالم.

كنتُ أحرك أصابعي بتلك التلقائية المجمدة لشخص يُغيبُ نفسه بمشاهدة ما يفعله عفاريت الإنستغرام هذا اليوم، حتى توقفتُ ربما لأن هذه التطبيقات اللعينة، وبخوارزميات لم تعد مجهولة، تجمعني بأشباهي المحتملين، أو هذا ما يحاولون باستمرار التلميح له، أننا نبحث عما يشبهنا، هذا الهوس التافه بتعريف الذات، المهم شاهدت مقطعًا لمذيع، لابد وأن أستخدم كلمة زميل، لكنني لن أفعل، يبدأ السؤال بما يبدو ذكيًا للغاية، قائلًا: "حريٌ بنا قبل أن نبدأ"، آه ما معنى كلمة حري. حسب المعجم هي مرادف لتعبير "من باب أولى" هل يبدو لائقًا جدًا، أن أقول "حري بنا"، لأصبح من جوقة المهندمين جيدًا في بداية الصباح، والذين لا يقضون وقتًا في الحمام، وهم يقلبون الهاتف عند بدايات الصحو، الذين يفكرون مليًا، أن ما هو حريٌ بهم وخليق أن يقتلوا آباءهم، أن يطعنوهم بالخنجر نفسه.

متعبة جدًا وعليَ أن أراعي العيب، ما لا ينبغي قوله، ما يحفظ مكانتي الاجتماعية، ما لا يؤذي سمعتي، والتي هي رهن سوق النخاسة الذي نطلق عليه تجاوزًا "المجتمع". لقد فشلتُ تمامًا، أنا فتاة حزينة، أكثر الحزن، هل يمكن أن أقتلع أعضائي الداخلية، أن أقدم عرضًا مسرحيًا، أن أكون أرقوزًا لأثبت ذلك؟ ما الذي أملكه، وعندما أكتبُ عن هذا ما الذي لن أخسره، بالتأكيد لن أخسر هلعي، لا يوجد شيءٌ يذهب الذعر، باستثناء حبة زاناكس، ممنوعة من الوصفات الطبية هنا، آه تذكرتُ المرة الأولى عندما ذابت نصف حبة زاناكس في دمي، كان الوقت الوحيد الذي لم أكن فيه بحاجة لأن أقتل أبي، لم أفكر في الأمر، صحيحٌ أن أحدًا لم يكن يحبني واستمر الوضع على ما هو عليه وأنا تحت تأثيرها، لم يكن أحد

يحبني طوال التاريخ، لكن ذلك لم يبدُ سيئًا لأول مرة، آه، لم يكن هنالك تلك العاطفة اللزجة، والمثيرة للغثيان، لم يكن هنالك شيء سوى حزن صافٍ مثل وجهٍ بدون أبٍ.

أتحدث للطبيب أن الدواء يناسبني كثيرًا، لم أعد حادة الطباع، لكنني أحلم في الليل، كل شيء في وجهه السوريالي، لو رفعتُ كأس ماء في النهار، وجدتني ليلًا أغرق فيه، لكنني هذه الفترة لا أرى في منامي سوى مشهد واحد، أقف في عزاء أبي مثل خيال مآتة، جثة تعجز عن تحريكها أصوات الآخرين، تمرُّ وجوه أعرفها منذ زمن بعيد على الرغم من أنني لم ألتقها قريبًا، أفكر في الهرب من أيام التعزية الثلاثة، لكنني أعطفُ على حال أمي فألزم مكاني، كنتُ أستيقظ فزعة للغاية، ألهث كما لو أنني كنتُ في معركة دامية، طبيبي الذي يعلق لوحة مرسومة من مريض له، يحدقُ فيّ مليًا، ضجرًا بكل تأكيد، يكره أنه عمل في هذه المهنة، ما لديه من هموم يكفي لهدم جبل، لكن التعزية التي سيقدمها لي اليوم، ربما كانت ستسليه قليلًا قبل سنوات، لكنها لم تعد مهمة. لا حاجة لي بأن أقول: إنني وحيدة ومنبوذة وأخافُ أخافُ أخافُ كل الخوف، من موت أبي.

بورتريه لفرشاة أسنان

أعلمُ جيدًا أنه ليس باستطاعتي أن أكتب الآن، لكنني أعاند القدر، ليس ثمة شيء محتم عليّ فعله أو الإعراض عنه، بالضبط كما عاندته عندما وقعتُ في حبك. ظننتُ طيلة الوقت أنني في منأى عن هذا الصراع، أتعرضُ لصور عشق الآخرين، ضاحكة معظم الوقت، أو عندما أكون مستلقية، تصبحُ تلك تسليتي الوحيدة، أن أمر على القصص التي أعرفها، وهي لا شيء بالنسبة لي، لكنني في أحيان أخرى أسقط في الشرك الذي صنعته لنفسي، إذ أبدو على وجه من الحسد، لقابلية الآخرين في أن يعيشوا كل ما لا أعرفه، هل صحيح أن الجبل يخفق من وراء وجهه الصلب، هل يمكن للريح أن تألف بالفعل تلك الأحجار القاسية فيه؟ كيف يخططون لمداهم البعيد كل هؤلاء الأحبة الذي لا يعبؤون بإلقاء جثثهم في الطرقات العامة؟ وهل أنا في حال جيدة في هذا التيه، الذي لم يعرف بعدُ خطو أقدامك؟

أتذكر جيدًا أنني قبل معرفتك بأيام كنتُ أحاول كتابة بورتريه عن فرشاة أسناني، كنوع من التدريب على الكتابة المباشرة والقذرة، اللعنة على التجريد، والكلام الهائم، اللزج، حينها اكتشفت أمرًا ما ، أنني عاجزة عن كتابة القصص، لأنني لم أعش مع الناس أبدًا، ولستُ الناس جميعًا بطبيعة الحال، وإن كنتُ ميالةً لإلغاء ذاتي عندما ألقاهم، فقلّما أصاحبهم، ولستُ في الوقت نفسه، جامحة الخيال، لا أطيقُ هذه المنطقة الوسطى، كنتُ أبحث عن موضوع ما، فاخترت الفرشاة، شيئًا بالغ التحديد، وسلبيًا، ثم لا أدري ما الذي حدث، تعرفتُ عليك، ولم أواصل ما كنت أنوي القيام به، لا أقصد بأنك صرت موضوعًا، لكنني تغيرتُ فعلًا، ربما لم أعد بحاجة لتلك القسوة على نفسي، كما لو أنني غرقتُ في المحيط، وكل موجة كانت تبعدني عمّا كنتُ أعرفه، لقد فزت أخيرًا بشعور الجثة في الطريق، لكنني ولفرط ما أحببتك ألفيتُ نفسي في أكثر الطرق وعورة، تقطعني

المركبات، والأهوال، ولا يهمني كثيرًا ما دمت تراني، لست حتى أعرف الوصول لمخيلة تراك معي على الطريق نفسه.

هنالك اعترافات كثيرة تقال في الحب، لكن أهمها يغيب كل الوقت، أو هو ما نحاول تعويضه، بكل ما نقول، هل فعلًا تستحقُّ الحب؟ لماذا تحظى بكل هذا الحب أنت دون سواك. ورغم قصر الوقت، الذي نعرف فيه بعضنا البعض، كيف تصبح مطلقًا، بهذا التصميم؟ تذكرت حادثة صغيرة، صارت فيما بعد حدثًا للتندر عليَ، كنا في رحلة جماعية من البيت، وكان ثمة بركة صغيرة أسفل جبل أمامنا مباشرة، لكنها لم تكن عميقة أبدًا، إذ يمكن لطفل صغير أن يقف فيها دون أن تتجاوز ركبتيه، سمعت صراخًا قادمًا من هناك فرفعت رأسي من على كتابي بقلق بالغ، وصرت أقول سيغرق الولد، كانت كلماته توحي بذلك: "سأغرق، أنقذوني"، ضحك الجميع قائلين إنه يشاكس زملاءه بهذا، لأنه لا يمكن أن يغرق في بركة كهذه حتى وإن أراد ذلك! لكن ذلك لم يغير شيئًا فيَ، لا تهمني هذه الحقيقة، فلديَ ما يشعر به الطفل المسكين، والذي ربما سيخيفه للأبد في صور لن تخطر على باله، بكيت، فعلت قهقهتم عليَ، لابد وأنني أضعتك بقصتي هذه، لكنها كل شيء أعرفه عني، وعنك أيضًا، إذ أحبك للسبب نفسه. أو لأقل بالطريقة نفسها، ورغم أنك لم تسقط بعد في طريقي، فأنا استويت والرحلةُ إليك شيئًا واحدًا بلا شك.

محاولة متأخرة للكتابة عن فرشاة أسنان، في الوقت بدل الضائع، حيث لم يعد يفيد كثيرًا أن أتكلم لا بمباشرة ولا بدونها:

فرشاة أسنان، شعرها ناعمٌ جدًا، مقبضها كحلي، من علامة تجارية عرفتها عندما كنت في الصف الثاني الابتدائي، لكننا لم نكن نستخدمها أبدًا، كان الإعلان التجاري عنها لطبيب متوسط الطول، أتذكره جيدًا، لأن الإعلان كان يضايق أمي كثيرًا، عندما يقطع تسلسل الأحداث في المسلسل المكسيكي الذي تتابعه، وكانت جدتي هي الأخرى تتأفف من

الأمر، كنتُ أستطيع تمييز حماستهم الشديدة، لأنها لم تكن تظهر إلا في تلك الساعة من اليوم، فرشاةٌ مضى على استعمالها سبعة أشهر، لا أنوي تغييرها إلا عندما أكره رائحتها، أتقزز منها في بعض الأوقات، رغم أنني أضعها في كوب من أيكيا، لكن هذا لا يكفي، فرشاةٌ بائسة، وعديمة الفائدة، وأتمنى أن أقتلها في مسرحية تراجيدية، أن ألقي بها من أعلى قمة في هذه المدينة، فرشاةٌ عديمة الضمير، فرشاةٌ حزينة، لا يعنيها شيء، فرشاةٌ لا تراني، ولا تدركني ما حييت.

"نوع من الضباب ينتشر في رأسها"(5)

يحدث أن يمر اليوم بسلام، أو هذا ما أظنه، لا وجود لمنغصات مباشرة، ولا مواجهات مضنية في العمل أو مع الأصدقاء، لكن يلازمني ذلك الشعور بأنني على الحافة. قبل أن أنام أفكر في الحرية التي سيعيشها جسدي إذا مت، أفكر بأسهل طرق الانتحار، كنتُ فيما مضى، إذا واجهت أيامًا صعبة، وفكرتُ في قتل نفسي، هدّأتُ من روعي بأنني منفعلة بسبب الظروف السيئة، لكن تحول الأمر لكابوس، عندما صارت أوقات الرخاء مقارنة بأوقات الاضطراب المحتدم ذاك، تدفعني لاتخاذ هذا القرار، ثم يجيء ذلك الشعور، أنني أتصرف بحكمة، لا شيء يقطعُ عليّ هذه التأملات، حتى فكرة أن الشعور بالخواء هو أيضًا شكل من الانفعال، عمومًا أي رادع عقلي ليس مفيدًا على الإطلاق، فأنا من طين المشاعر، معجونة بها ولا يمكن لأي من أجهزة هذا الكون أن تفيد في حالتي هذه. أريد أن أرقد في اللاشعور، أن أتمدد قدر استطاعتي في أول مكان لن يعذبني، الخواء الحق، البارد، والمكتمل.

كل الأسئلة لها وقع سوريالي في نفسي، أصارع أصغر الأشياء، والأكثر قسوة أنني أصارع مصارعتي هذه، وهكذا دون أن تتوقف العجلة عن السير فوقي، عندما أفتح صفحات الاضطرابات النفسية، أقول هذه أنا، وهذه أنا، وهذا ما أعاني منه، وأنا في الحقيقة لا أفهم كيف لضآلتي أن تكون شيئًا ما، لكن مرة أخرى، الأشياء ليست بحجمها أساسًا، وهذا جزء من مشكلتي مع الواقع. لن يعود هناك لون أزرق إذا مت، لكن لا يعني هذا أي شيء بالنسبة لي، حتى السماء الممتدة بلا نهاية لا تكفي، فهي لا تخصني، لا شيء يخصني سوى الخوف. هذه الكآبة ليست هويتي التي أدافع عنها، الشيء الذي يمنحني بطاقة عبور لمجتمع ممن يعانون في السر، لا أشعر بأنني أكثر من كائن طفيلي، يرغب في أن يجد وجهةً ما، أقول للطبيب في الجلسة الأولى: وما أدراك أنني لا أتذاكى عليك؟ لأنني

أقل مما يسمى، أضعف من أن يشار إليّ، لا شيء يخصني سوى الخوف، لا شيء بالمرة سوى الخوف.

أحاول ألا أكون خلاقة كي لا أفكر من خارج الكتابة وحاجتي إليها، أتذكر رولان بارت في يوميات حداده على وفاة أمه، كان يخشى أن تتحول هذه اليوميات لأدب ما. كأن في الأمر خيانة واضحة، أنا لست مهووسة بالسرد، أتعاطى مع فزعي هذا برقة شعور تستهلك شيئًا مني هي الأخرى. كم أريد أن يطلع الصبح سريعًا، وألا تكون كل هذه الأفكار قد جالت في خاطري، وأن أشعر لمرة أخرى بفيضان الشمس على أشجار الشوارع، وأن أحس بقدرة خيط ذهبي على اختراق حواسي بالكامل، حواسي أسيرة الموت المرتقب، أو أن أشرب قهوتي، لأفكر بسذاجة أنني نسيتُ تأثير القهوة على مزاجي، أريد أصغر الاحتمالات أيضًا، فربما تنقذني. ربما تفعل.

أبذل جهدًا كبيرًا وغير متوقع لكي أكون موجودة في أي مكان، تويتر على سبيل المثال. وما يعذبني لا الأحكام التي يصدرها الآخرون عني، بل تأكيد حضوري، هذا التكاثر المزمن لمشاعري، ووجودها في مكان أكبر، شيء يشبه أن تحول كل شيء إلى مرآة، وكلما نظرت إلى نفسك صدمتك الحقيقة، أنها ليست مزحة، لست بطلًا في فيلم ما، ولا شخصية مختلقة، أنت موجود بالفعل وعليك أن تتعامل مع حياتك فورًا. قد يظن أحدهم أنني مثال جيد للشخص الانهزامي، وأنا كذلك بالفعل لا أريد أن أنكر، ولا أن أدافع عن أصالة حالتي، وجديتها، كأن أقول بأن الأدب لم يدفعني لما أنا عليه الآن، بل كان طريقتي في التعرف على أسماء الأشياء، لطالما كنتُ ضعيفة، ولم أعرف أن للحزن مفردات عديدة، تستطيع في كل مرة أن تذيب المسافة بيني و العالم.

كلمات رنانة، لها وقع موسيقي، وإيقاع محبب كما يبدو مع العالم الذي صار يحتفي بالكآبة، لكنها بالنسبة لي، حقيقتي التي لا أستطيع الفرار

منها، الحقيقة أيضًا كلمة كبيرة، كلمة يتوخى الكثيرون استخدامها، فالنسبية والتردد والهرب روح الحياة التي نعيشها اليوم، لكن ما ضرّ العالم لو كان لي حقيقة واحدة، أنني مهمشة ومقصية، ويعاد تدويري كل يوم في أيام باهتة لا تقتصد في الدفع بي كل لحظة مسافة أقرب من الموت؟

لا أريد العودة لطفولتي، ربما أصلح بعض الأشياء لكن مع قلة حيلتي لا يبدو أن شيئًا ما سيتغير، بالإضافة إلى أن ذلك متعبٌ للغاية، أن يعاد هذا من جديد، تكرار الهزائم، والانتظار الممض للخلاص، كلما سمعتُ أحدًا يشتاق لطفولته، خُيّل إلي أنني في عمل فضائحي ويوشك أحد على الإمساك بي، لا لستُ أرى في ذلك براءة ممكنة، ولا أحلامًا شفافة، لم أتغير كثيرًا، ما زلت هناك، التململ نفسه، محاولة إثارة إعجاب والديّ طوال الوقت، وعدم شعورهما بالرضا، الذي ولد لديّ قناعةً بأن شيئًا لا يكفي على الإطلاق، ومهما ركضت في هذا الطريق، لن تصل لأي شيء، هنالك دائمًا سباق آخر، يجري فيه الآخرون ممن تظن بأنك كنتَ معهم في المضمار نفسه، لم يبق أحد غيرك. لا أحد. لا أريد العودة لطفولتي المنتزعة مني، هناك حيث بدأت تلك الإثارة في داخلي، المكان الذي بدأت فيه هذه الغلالة بالتشكل، على وجه لا يمكن منعه، مثل أن النعناع مخاتل، يصبح مزرعة بأسرع مما تظن.

أعرف جيدًا حالة العجز التي يمر بها من يحاول إصلاح هذا كله معي، أو التعب الذي يمكن أن يخوضه المرء لينقذ شخصًا يقف على مرمى قريب من الموت، ولا أعتقد بأن أي حب يحمل هذه القدرة على تخليص أحد من عذاباته، فلكل منا قصته، لدي تقدير كبير للعزلة، وإيمان بها، لا على سبيل التعفف عن محاولات الآخرين، بل لأنني لا أرى فيهم أكثر مما أراه في نفسي، فلا أتخيل حالًا غير التعب، وبأنني لستُ وحيدة على هذه الضفة فكل الناس معي، حتى وإن بدا عليهم ما يخالف ذلك. كل الناس

متعبون.

"في الحقل – أنا غياب الحقل"(6)

كان شديد البياض، يحمل شامات صغيرة تتوزع على خده، وفوق شفتيه من ناحية اليمين، وكنتُ أعرف أنه لا يشبه أحدًا أعرفه أو قد أتعرف عليه على الإطلاق ومع ذلك كم كان صعبًا أن أتمشى في القاهرة، حيث أصحاب الوجوه البيضاء كثر، كنتُ أرى في كل وجه منهم، غيابه، وكذلك بالنسبة للشعر، والشامات، كنتُ أحس بثقل اللحظة وهي تصبح مهدرة لأنه ليس معي، بل شعرتُ في لحظة من اللحظات أنني لن أتمكن من رؤيته أبدًا، يقول لي إنه يجلس على الرصيف بملابس النوم، أتخيله متشردًا على الرصيف، وأنني سأمر وسأعرفه، سآخذه بالسيارة، وسنكون معًا، لكن بيننا وقتٌ طويل، وغربةٌ مستحيلة. أتذكرُ جيدًا أن البياض يعني أشياء عديدة، من بينها القماط، والكفن، في تنويعة على الرثاء البشري التراجيدي أو الذي يسعى لأن يكون كذلك، أتذكر أنني أتجنب شراء القمصان البيضاء لأنها تتسخ بسرعة، وينصح الناس بلون السيارة الأبيض لأن الغبار لا يظهر عليها سريعًا، لكن فيم يفيدني هذا التداعي كله؟، إنها محاولة أخرى للهروب، فتحُ باب جانبي للعزاء، وإن كانت هذه الفكرة مجردة بعض الشيء، إلا أنها في الواقع المباشر تعني أنني لا أستطيع أن أقلهُ بسيارتي من على الرصيف وأنه سينتظر كثيرًا حتى لو ذهبتُ كثيرًا إليه.

في البيت لم تكن أمي تحبُ اللون الأبيض، أبي يحب اللون الأصفر، إخوتي لا يتكلمون كثيرًا عن ألوانهم المفضلة، لكنني أفهم أن أختي التي تصغرني بعامين تحب اللون الأسود لأنها ترتدي ثيابًا سوداء معظم الوقت، حكت لي خالتي ذات مرة أن أمي سرقت من بيت الجيران عندما كانتا في سن السابعة، في العمر نفسه، لأن جدي أنجب من زوجتين في ذات العام، حجابًا أبيض، للمدرسة، كان من الصعب أن يغسلن ملابسهن في ذلك الوقت، كانت ملابس أمي رمادية من فرط قذارتها، بدلت

حجابها بحجاب بنت الجيران، ذلك أنها إذا تركت حجابها يمكن لها أن تغسله فلا تصبح خسارتها كبيرة، ضحكت أمي خجلة عندما أخبرتها بأنني أعرفُ تفاصيل هذه الحادثة جيدًا، أبي يحب اللون الأصفر، لأنه سمع أنه لون الغيرة، وكان يغار على أمي كثيرًا، أما أنا فأحبُ كثيرًا الرمادي، ليس لون اللحظة، ليس لون الأبدية، فجٌ، ومهادن، وهو ليس أبيض، فلا يمكنني أن أفتقدك أكثر. أحبك كثيرًا.

الورقة بيضاء، أغيرُ إضاءة جهاز الحاسب الآلي للون الأصفر، ما زلتُ أتجنب الملابس البيضاء، أما الفساتين البيضاء فلقد كبرتُ عليها كثيرًا، لم يعد لدي متسع من الوقت لكي أرتدي فستان العرس، الرغبة بيضاء كما تعرف وأعرف، لكنك لم تشاهد بياضي بعد، لم تلمس بياضي بعد، حليبُ الأم أبيض، النبيذ الأبيض ليس أبيض، ذهبيٌ أكثر، لذلك هل يكون السهو شيئًا غير الأبيض؟ كم تعبث كثيرًا من كل هذا التجريد مجددًا، دعني أقول لك بشكل مباشر، إنني لا أستطيع أن أتحكم بمخاوفي، وحيدةٌ منذ عرفتك، إذ أنني قبلك لم أكن أعرف أن الصحبة ممكنة، أن الحب قد يعني أن نجلس مع إنسان آخر، ولا أعرف لم لا أستطيع النظر إلى عينيك الآن فورًا، بما أنني أريدُ ذلك، لونك الأبيض، شديد البياض وشاماتك ليست شيئًا ممكنا، بالكاد أتعرف على هذا كله في المحيط من حولي، بالكاد أدركُ شيئًا منك.

رسالة قصيرة عن الخوف

كيف يقرأ المسافر المجاور عنوان الكتاب بين يديّ، هل يظنها لغة فارسية أو عربية؟ وعندما يفعل كيف يميز كلمة شعر، كنت اليوم أسمي المكان الذي يقف فيه القطار سكة، أسأل في أي سكة سيتوقف قطاري المتوجه إلى فرانكفورت، توقفت نوف قليلًا أمام تصميمي في أكثر من مناسبة للإشارة لها بـ"السكة" فلطالما فاجأتها بقدرتي على إيجاد الكلمة المناسبة، رغم شعوري بأنني لا أفعل، أمس مثلًا عرفت نوف من خلالي أن العربية أيضًا ترجمت (political correctness) كنا نتحدث عن النسوية والحراك الشعبي، كل الطرق معنا تؤدي للحديث عن السياسة بشكل مباشر، كل قصة ستتحول في آخر الأمر لحربنا الضارية من أجل نيل حصة صغيرة جدًا من حريتنا. في نفس المساء وبينما نتمشى في ساحة هانوفر كان ثمة مظاهرتان الأولى يقودها شبان سودانيون ينادون بوقف القتل في دارفور والانتصار للديمقراطية في السودان، وفي الشارع نفسه، بعد بضع خطوات، مجموعة من النباتيين يصرخون عاليًا لإنقاذ الحيوانات. هل هنالك قدر لا بأس به في ابتذال القول إن مشكلتَي العالم الثالث والأول في مشهد واحد تثيران التقزز؟ كنتُ أفكر في كل هذا البرد الذي تستحوذ عليه هذه البلاد وحدها، وبأنني باردة في الأعماق.

من نافذة القطار أشاهد مساحات خضراء، كما لو أن الصور معدلة بتطبيق إلكتروني، اليوم وحسب توقعات الطقس لن تمطر، لكن درجة الحرارة تقل عن سبع درجات، أفكر فيك. ما اسمك؟ هل أنجح مرة أخرى عندما أطلق عليك "الحب."؟ أعرفك في المعجم جيدًا، أعرفك في السياق كذلك، بالتأكيد ثمة من سيسألني كيف جرؤت على تسميتك بهذا الاسم؟ سيظنون أنني لم أجتهد، وأنني أتوفر على هذا النوع من الذكاء. ببداهة أسميك الحب إذن. في المجموعة الشعرية التي أقرؤها يقول الشاعر:

"رجل يعوض خساراته بالوقوف أمام دكان مقفل." في صف أي مظاهرة كان ينبغي عليّ أن أمشي مساء أمس، لكي أصل إليك؟

المسافر بجانبي يشرب بيرة محلية، ثم يشاهد على هاتفه مسلسلًا بطله شرطي وسيم، كنت ألاحظ أنه يرتدي بزة الشرطة، عندما دخلت القطار، لكنني لم أهتم حينها، إذ أنني من مسافرين قلة لا يمتلكون مقعدهم، وعليهم أن يبحثوا عن مقعد شاغر، أو أن يجلسوا في غير مكانهم إلى أن يأتي المسافر صاحب المقعد، لذلك علي أن أكون متأهبة لمغادرة المقعد في كل لحظة في رحلتي التي تستغرق أربع ساعات، لا أستطيع أن أقرأ باسترسال، ولا أن أضع معطفي على المقعد، وكلما سمعتُ صوت باب مقصورة القطار، توقعتُ أن دوري قد حان، الشرطي بجانبي لا يهتم لكل ذلك، على طاولة الطعام، يضع جهازه المحمول، يشاهد شخصيته المفضلة التي تشبهه ويمر الوقت.

في القصيدة التالية أقرأ ضاحكة: "هنالك عميل بين المسافرين، / يجب أن أجده في الحال/ عميل يأخذني فورًا لرأس العالم." أنظر من حولي، أنتظر عميلي، وأين هو رأس العالم؟ في مطار هانوفر، كان ثمة صالات مغلقة، ليس لأن اليوم أحد، بل لأن أحدًا لن يعبرها، هل يمكنني اعتبار ذلك مؤشرًا لكيلا أحاول اجتيازها، باحثة عن مسافرين واثقين، لا يقرؤون اللافتات بصوت عالٍ، لا يتوقفون كثيرا أمام لوحة مسار الرحلات، وأن أخمن من مظهرهم ما إذا كانوا عائدين أو مسافرين، فبدوري، أشعر بأنني سقطت من مكان عالٍ ودون أن أتعافى، أعود.

عندما ذهبت وهأنذي أعود، في كلتا الحالتين لا أصل إليك، ولا أعرفك، ربما لو دهسَتني الجموع المتظاهرة، وكنتُ جثة صموتًا، تحت المشي الهائل لهذا العالم، ربما أصل لرأس هذا الكون، قريبًا إليك. أيها البرد الأكثر بردًا من أي مكان وزمان، يا داخلي، ونظيري، يا عميلي...

شعري البنّي أكثر مني، الذي لا أستطيع أن أرفعه لا كذيل حصان ولا ككعكة مدورة، والذي تنفر من مقدمته خصلات قصيرة لم أكن أعرف بوجودها، وهذا اللون القمحي الكثير والدال، وقميصي البني، وشالٌ بلون النبيذ الأحمر، أحتاج بكل ما أنا عليه الآن، أن أنظر مليًا لقرميد المنازل، من نافذة القطار، القرميد الذي رسمناه في الطفولة، ظنًا منا أن هذا هو ما يعنيه البيت، وأن أتخيل عودتي لشقتي الحديثة في بناية بيضاء في مسقط، شيئًا طارئًا.

يقشر المسافر بجانبي موزة صفراء، كنتُ قد أطفأتُ قبل قليل سماعتي، إذ أن القطار توقف لدقائق فظننت أنني سأقوم من مكاني بلا شك، لا أستطيع أن أسمع شيئًا بينما أنتبه للواقع، عندما أعود بسيارتي للوراء أطفئ المسجل، وحالما أنجح في الخروج، أشغله ثانيةً، ينتبه إخوتي الصغار لهذا على الدوام، فلطالما تشاجروا على من سيختار أغاني الرحلة، ثم فجأة أطفئ كل شيء وأطلب أن يصمت الجميع وبعد ذلك يمكنهم أن يختاروا أي موسيقى يشاؤون فأنا لا أمانع تزجية الوقت كيفما كان ذلك، وأريد هذا رغما عن إمكانياتي. هل يمكن أن يتناول المرء موزةً بعد البيرة؟ أتعلم هذا أيضًا من هذه الدقائق.

أمام كاتدرائية مدينة آخن الألمانية القديمة جدًا، والتي تحوّل جزء منها لمقر بلدية المدينة، يقف عروسان، ويلتقطان صورة، وأسأل نفسي: هل يتزوّج الناس إلى اليوم؟ يقطعون عهودًا رغم العالم، يتقاسمون كل شيء، ويدفعون فواتير مشتركة، ولا يفكرون في تعيين محامٍ جيّد بعد، ولا يظنون أنهم سيحتاجونه لبعض الوقت؟ آه، أحبك، ولا أريد ثوب العروس ولا الصورة، ولا زينة البلدية التي بناها بلا شك آلاف العبيد، والتي نجت من الحرب العالمية الثانية، لكنني أريد وبحرص الطريدة، أريد أسئلة أخرى أمام هذا كله، وأن أتجرأ على التقاط صورة لهم، كفتاة قادمة من أقصى العالم، تكتشف هذا للمرة الأولى. وأريد أن أسكن أقرب

إليك، سكونًا لا يتضمن أي مدينة ناجية.

تمطرُ في قريتي البعيدة شمال عُمان، وأوراق الموز الطويلة تبلّلها السماء التي غابت طويلًا كعادتها. مرئية كل الوديان في قلبي.

في صالة الانتظار في مطار فرانكفورت، مشاهد من جنازات في العراق، ووجوه محزونة تطل تباعًا على الشاشة، عندما يحين دوري، لدخول الطائرة، أسمع مروان محفوظ "رجعني يا زمان" وبعد مرور ساعتين تقريبًا من الرحلة، يخرج المسافر بقربي، علبة غليونات ويبدأ في شمها، ويصدر أصوات نشوة تلفت نظر كل المسافرين في المقاعد المجاورة. أتصل بالإنترنت بعشرين دولارًا، كي لا أكون وحيدة في السماء، عندما وصلتُ إليها أخيرًا.

في محطة القطار، خرج صبي صغير أخافني، لا يرتدي سوى سروال داخلي، يحمي صدره الناتئ مثل علبة تونة مضغوطة، بيديه، كان الجو باردًا للغاية، ظننتُ أن أحدًا سيقول لي إنه مشهد من فيلم (birdman) عندما كان هنالك مشرّد يصرخ عاليًا كيف أن الحياة وهْم كبير. وعندما يتأثر ريغان في ذروة إحباطه من تحقيق شيء ما، يعتذر المشرد قائلًا: "اعذرني لقد بالغت، كنتُ أحاول أن أدع لك مجالًا للعاطفة، لا بدّ أنني بالغت".

ما الذي يحدث بالضبط عند شفير الهاوية؟

يحدّثها عن مباراة بين بنجلاديش وعمان، يقول إنه شاهد مقطعًا مصوّرًا للقاءات أجريت مع "بنجاليين" في مقاهي مسقط، ويتوقع أنهم لو حضروا في الملعب يوم المباراة لامتلأ تمامًا لكنها لا ترد. يقفز سريعًا ودون أي حزن ملحوظ في صوته للقول: " الصاحب ساحب" يقول ذلك وكأنه أمر سيئ، فلا تقول شيئًا هذه المرة أيضًا، كان ظهره للمساحة المفتوحة في المطعم، وكانت تستطيع من مكانها متابعة من يدخلون ويخرجون، ربما لم تكن تفكر في شيء، وربما كانت تستمع بحرص لما كان يقوله، واثبًا من موضوع لآخر، باتزان، دون نغمة الحماسة المبتذلة التي لا تليق بشخص يبدو أنه سيخرج في نهاية الليلة لسيارة لا تقل عن بورش.

لم أستطع تبين ملامحها، بالضبط كما لم أسمع صوتها أبدًا، لكن شيئًا باردًا، كان يفيض عن حدّه في ذلك المكان، ثمة جليد يتفتت، وسريعًا دون أن نستطيع مقاومته، يقتلنا تباعًا، صخرة ثلجية تصطدم بمن سيدخل بعد قليل، وأرضٌ شديدة الجفاف على نحو مروع. يدخل في هذه الأثناء أبٌ وثلاثة من أبنائه، وأمهم في الخلف، يتقدمون نحو طاولة فارغة في زاوية المطعم، بصمت، يسحبون مقاعدهم، ويستمرون في صمتهم معًا.

شابة متوسطة الطول، تضع غطاءً على شعرها بإهمال، تقرأ كتابًا عن ثورة ظفار، لا تطلب أكثر من صحن مقبلات، وتفكر ما الذي يعنيه أن يكون أمان البيت هو نفسه أمان الشارع؟ لكن أحدًا لا يسمع أبدًا، ولا تصدرُ تلك الفكرة أي طنين، وبرطانة معهودة، وبحزن كبير، تفكر الآن، أنها لا تحب أحدًا أكبر من الحروب التي حدثت في العالم وستحدث. ولو أنها كانت في البيت، لاستمعت لموسيقى (Magnolia snow in April)

كخلفية صوتية بينما تقرأ عن حرب لم تحدث منذ زمن بعيد، وأبناء جلدتها كانوا هناك على الجانبين، فيما هي لم تكن وقتئذ حتى فكرةً في رأس أمها، إذ أن الأفكار عمّا يحصل في تلك الحرب سبقَتها بكثير لكل شيء: هذا الشارع، تلك الفكرة بأن بيت الأسرة يجب أن يكون حميما وبحديقة منزلية، ذلك المجمع التجاري، تلك الزهور المزروعة على شرفة فيلا بيضاء... كانت الحرب قبل كل شيء، قبلها، قبل كل هذه الوجوه الأسيانة وقبل المستقبل.

ذكرى الشيء الذي رحل، ليست هنا، لأن كتمانًا كبيرًا يقول إن شيئًا لم يكن هنا، ثمة أشياء ترتعش في الهواء، إلا أنه في نهاية الأمر ليس أكثر من شتاء مسقط، مدينةٌ لا تبردُ كثيرًا في الظاهر، طنين المكيفات في البيوت المتفرقة، يشكل توحدًا غنائيًا، ورثائيًا. الفتاة الآن تنظر لذلك الرجل، لظهره، لبهجة صوته الرصينة، لثقته، أمام صمت المرأة التي تواجه بوابة المطعم، حيث العالم يتحرك، تنامت داخلها تلك الفكرة بأن الواقع يختفي رويدًا رويدًا ولن يعود.

على وشك الاستسلام

من أي شيء تكون مادة الحب؟ من نقصنا؟ من عجزنا عن فعل أشياء كثيرة نرغب في فعلها؟ وعندما يحين الوقت لنعرف الحب، كيف نخلق المزيد من التطمينات كلما احتجنا إليها؟ بأننا لن نخوض حربًا بخسارات كبيرة، لا أقول حربًا بدون خسارات، إذ أن اليأس يتملكني الآن. أفكر أحيانًا في أن الأمر بسيط، لا أعرف إن كان هذا نوعًا من التطبيع مع من يحملون الضغائن ضد التعقيد، إن كنتُ أحاول أن أكون سهلة، مسترسلة، واضحة، حتى لو تطلب الأمر أن أكون ساذجة. أليس بسيطًا، أن ترهف السمع كلما انطويتُ على نفسي؟ أن تهدئ من روعي كلما خفت؟ أن أقول لك إنني اليوم أحبُ كلمة "الردى" فتقول إنها لا تعني هلاكنا نحن، كل العالم يهلك عدانا، إذ نقتصد في النظر إليه خارج غرفتنا؟.

استيقظتُ ذات ليلة، وأنا أشعر بالرعب، كنتُ قد أصبتُ بالحمى، ومضى على مرضي بضعة أيام، لكنني فكرتُ في مكان ما بين الحلم واليقظة، أنها تحبسني داخلها، وأنني لا أستطيع الفكاك منها متى ما شئت، أنا مريضة بالحمى، وهذا أمر حتمي، متى ما غادرتني يمكنني أن أتحرر منها، لكن قبل ذلك، لن ينفعني حتى الادعاء بأنني بخير، قمتُ من فراشي، وشغلتُ كل إضاءة الغرفة، وبدأت أنشجُ بالبكاء، وأضرب وجهي ورأسي، لا شيء يرعبني بقدر السجن، ربما لأنني جربته، عندما كنتُ صغيرة، عندما اكتشفوا علاقتي العاطفية، فحبسوني في غرفة فارغة إلا من فراش صغير، وفي أوقات محددة، كانوا يفتحون الباب ليتأكدوا من أنني ما زلت أتعذب، طلبتُ من أختي أن تعطيني نسخة جديدة كنتُ قد اشتريتها من الأعمال الكاملة لجبران خليل جبران، غلافها الأسود، والطباعة الصفراء عليها، أوراقها البيضاء وكلمة التائه ما زالت تعذب ذاكرتي، عندما دخلوا ووجدوني هناك مع الكتاب الذي تناولته من النافذة قالوا إنني أدعي، الكتب والقراءة للنابغين، أما أنا فلستُ أكثر من مصدر

للحرج. لا أريد أن أقول الكلمة الثانية التي قالوها لي، لأن ذلك كفيل بأن يحول دون أن أواصل الكتابة.

علاقتي بك، تشبه هذه الحمى، في أوقات كثيرة أعرف أنني لا أستطيع شيئًا أكثر من مرور الوقت كيفما اتفق، دون أن نعطي الأمر أهمية، كل واحد منا يحاول أن يستمر في الحياة، ولم يعد الحب شاغلًا، شيءٌ وانقضى للأبد، تبخر، ليس هاجسًا بعد الآن، حتى إننا توقفنا عن السؤال عنه، لكنني فجأة أضيء الغرفة، وأضرب رأسي وأرفس كل شيء أستطيع أن أصل إليه، وألعن حظي، الأكثر إيلامًا في هذه الحالة، أنني لا أعرف حقًا، إن كان هنالك شكلٌ آخر لكل علاقات الدنيا، أن هذا الذي نمر به صحي أو مسموم، قضيتُ عمري كله أحب الوحدة، كي لا أهدر نزعتي العاطفية فيعود ذلك عليّ بالردى، أعرف أنني عالة، لكنني في المقابل كنتُ صامتة، لقد حولني وجودك بجانبي إلى شخص غاضب طوال الوقت، لم أكن أكثر من جرح مفتوح قال لك: "لقد سجنتُ ذات يوم لأنني أردت الحب، أكثر من رغبتي في كل شيء امتلكته حقًا، إعجاب الآخرين، والذكاء المبتذل في المدرسة، لقد أردته، وكنتُ للمرة الأولى أمتثل لإرادة قوية ومصممة".

ثم ماذا، يكبر "السلطعون في داخلي" مثلما تقول آن ساكستون، أعتذر منك لأنني أذكر شاعرة هنا، وأكون لمرة أخرى، غريبة بالنسبة إليك، طفلة غير ناضجة، لا تضع أقدامها على أرضكم نفسها، لكنه "السلطعون في داخلي" يمدُ أطرافه، يمتلك جسدي، "أحاول أن أصلي"، إيمان مرسال، تقول: "أريد أن أصلي لكن لا أعرف لمن". ساكستون، تقول إنها لا تستطيع الصلاة، والسلطعون في داخلي، استنفد كل إرادة لي، أمي عندما تصلي، أسمع في همسها كل الآيات التي تقرؤها، وكل الأدعية التي تخصني، والتي لا تحاول أن تخفيها عني، تتمنى أن أعود لرشدي، أن أكون فتاتها المحبوبة لمرة أخرى، لكنني مغدورة في غرفتي الآن، وكل ظلام السجن،

يقع على صدري، فلن أخاف بعد الآن، ولن أشغل ضوء الغرفة مجددًا.

"الأمل أسوأ الشرور"(7)

تتملكني رغبة ارتداء قميص قطني واسع، كما لو أنني وقتها لن أشعر بنفسي، أريد أن أتوقف عن التظاهر، هذه الجملة تبدو كما لو أنها حدث كبير في فيلم مبتذل. لكن ليس بعد؟ الإنسان يمتلك القدرة على أن يذهب بعيدًا في هذا، أن يتخيل لنفسه أشياء لا إشارات عليها، أن يسير في طريق لا تتحمله قدماه. هذا هو الأمل؟ لكنني الآن، لا أستطيع النظر إلى أي فرصة معك في المستقبل. أستيقظ في الصباح، أعد بيضًا، وبسطرما، وأسخن الخبز، أشرب قهوتي وألفُ شعري، وآلفُ الهواء، دونك.

وعند المساء أقول للناس عبر الراديو: مساء الخير، الطقس يمكن احتماله اليوم أكثر من يوم أمس أليس كذلك؟. كيف يمكن أن تعدوا لأنفسكم مباهج صغيرة؟ لا تشعروا بالذنب لأنكم لا تنفذون خطط الأجندة التي وضعتموها لأنفسكم. كل شيء سيكون بخير، إن زادت أوزانكم لا بأس، لديّ اليوم بعض النصائح التي يمكن أن تفيدكم. المقاهي المختصة تنتشر في البلاد، إن معايير جودة البن والعلاقة بالمزارعين في قصص المقاهي المختصة شيء جدير بالحكي، وفي أثناء الفواصل الغنائية، أنفخ في الميكرفون، أفتح موقع مجلة كيكا، وفي خانة البحث أكتبُ كلمات تخطر على بالي: اليأس، ينهمر، ينفرط، الغضب، صامتة، وحشي، بارد، شتوي، السهو.. إلخ. وعندما أخرج بعد ساعتين من البث المباشر، تلفحني رطوبة مسقط، أحس بأنني بحاجة للاستحمام، كما لو أن هذا دليل ملموس على شيء متسخ، عطن، ملوث، يمسك بي، يلاحقني، شعري القصير يلتصق بعنقي، وأريد أن أبتعد جاعلة من "البعد إلهًا."

أقرأ "القلب صياد وحيد" لكارسن ماكالرز، عندما تعرفتُ عليها من خلال قصتها "أنشودة المقهى الحزين" أسرني ذلك الصمت في كثير

من المواضع، إذ بدا جزءًا من اللغة، شكلًا لرصانة ماكالرز وهشاشتها في الوقت نفسه، بحثت عن روايتها "القلب صياد وحيد" في كل مكان، طلبتها من موقع إلكتروني اعتذروا لعدم توفرها، عندما سافرت بيروت، سألت عنها في المكتبات القديمة، تمكنتُ من الوصول لابن أخت صاحب دار الفكر العربي التي نشرت الترجمة الأولى لهذه الرواية للعربية، وقال لي إن شيئًا لم يبقَ من ممتلكات دار النشر، وعليّ أن أستسلم، ابتعث النسخة الإنجليزية، وبدأت في قراءتها فعلًا، لكنني مللت كالعادة، قررت أن أرسل لصديق يمتلك دار نشر واقترحتُ الرواية عليه، وعرضها على صديقة لي، بدأت ريوف في قراءتها فعلًا، ولم تثر اهتمامها بما يكفي، ثم عرفنا أنها قيد الترجمة في دار نشر أخرى، لذلك بدا الأمل في أن أحصل على نسخة مترجمة على وشك أن يتحقق. الآن وبعد مائة صفحة، أستطيع أن أشاهد مدينة معزولة يسكنها نحو ثلاثين ألف شخص، تملؤها المصانع، وتعيش فيها أرواح شريدة ومنبوذة، هنالك نوع من الغنائية المحببة في كتابة ماكالرز، تروق لي كثيرًا. هنالك في القصة، رجل وزوجته يتناوبان على النوم في السرير نفسه، وعندما يحين دور أحدهما، يقلب غطاء السرير، لكيلا ينام على الجهة نفسها التي تغطى بها شريكه، لا طاقة لي، لا أستطيع على الإطلاق أن أفعل بك هذا.

مقص الحبوب المنومة

تحدق في رف المكتبة، ورواية "مملكة النساء"، لكنك لا تفهم مزاجك يوم اشتريتها، فأنت لا تقرأ عادة هذا النوع من الكتب، ليس لديك نظرية بخصوص ذلك، لكنك لم تفلح في قراءة عمل واحد، بلى قرأت عملًا قصصيًا وحيدًا، رواية قصيرة اسمها "الرقة التي تغتال" كنت في الطائرة عائدًا من مراكش قبل ثلاثة أصياف، تتذكر الضوء الصغير في الطائرة، الأصفر، الذي كان يتوزع بعذوبة على مقعدك، منتصف الليل، وكيف أنك بكيت كثيرًا عندما وصلت لنهايتها، يومها أدركت أنك لن تقرأ عن هذه الأشياء مجددًا، كانت رحلتك لمراكش متعبة للغاية، هذه المرة الأولى التي تسافر فيها للمغرب، قرأت الكثير من الأدبيات عن عوالم مدنها، وأردت أن تعرف كل شيء عن هذا المكان، بدأت بساحة الفناء، وقفت أمام الأفاعي التي يتلاعبون بها وادعيتَ بأنك تستمتع باللحظة، كانت الساحة واسعة، لكن الأمر انتهى بك لغرفتك الفندقية، في نزل يتزين بالمنمنمات، وذلك لا يهمك على أي حال، وكانت لوحات أبيات محمود درويش والحلاج تزين غرفة النوم، كلمات عن العناق والحب، لا يشعرك ذلك بالنفور، إطلاقًا، لا شيء يتقدم نحوك قاطعًا أي مسافة.

نمت قليلًا، ثم راودك حلمٌ غريب، تذكرت ابنة عمك التي تناولت حبوبًا منومة، لأنها تحبك، لم يكن عليها أن تفعل ذلك، ربما لو أرسلت لك مكتوبًا، لصدقته فورًا، وتصرفت وفقًا للطريقة المناسبة، هل تراها أحبتك فعلًا؟ الآن لديها ثلاثة أبناء صغار، يرتدون ثيابًا ملونة أكثر مما يجب كما لاحظت. ربما كانوا أولادك، الذين لم ترغب بهم، ليس لأنك تمتلك نظرية معينة، لكن شيئًا ما لم يكن مفهومًا بالنسبة إليك، من أين جاءت كل تلك الحبوب المنومة؟ وهل هي من النوع نفسه الذي جربته ذات مرة، وكنت تشعر بجسمك يطفو فوق نفسه عند الساعة العاشرة مساءً، تلك الحبوب الوردية الباهتة الصغيرة، التي تضطر لأن تقطعها لنصفين، بسكين

المطبخ، لأنك لم تكن تعرف أن ثمة قطاعة مخصصة لهذه المهمة، ولم تفكر في ذلك.

هل من التفاهة في شيء أن يقضي المرء نحبه بالحب، في الوقت الذي يموت فيه الناس لأسباب جدية أكثر، لا تفكر بهذه الفكرة، مكانها ثمة فراغٌ يستطيل، لو كنتُ مكانك لسارعتُ بالقول إن جيمس بالدوين، الذي اعتبر مناضلًا ضد التمييز العنصري، كان قد كتب رواية صغيرة ومعذِّبة، اسمها "غرفة جيوفاني"، وقد كتب فيها: "قلة من الناس تموت من الحب، لكن الكثرة تهلك وتفنى كل ساعة وفي أكثر الأماكن غرابة – بسبب فقدانه" وأنا أصدقُ بالدوين، لقد اختبر وشعبه آلامًا جسامًا، لكنك بالطبع لا تعرفُ بالدوين ولا الغرفة، ولا السكك الحديدية في الجنوب الأمريكي، ولا وقعَ كلمة هارلم، وأن ما تتذكره عن نيويورك أن الصباحات فيها منعشة، كل البشر يتحركون بنشاط، متوجهين لأعمالهم، دون تلكؤ واضح، كنتَ قد استخدمت في تعبيرك عنها عبارة "إنها مدينة حية".

وصف لي الطبيب جرعةً إضافية من مضاد الاكتئاب، لكنه قلق على جسمي الذي لن يتحمل حسبما يقول أن يتلقاها دون تهيئة مسبقة، يوصيني أن أتناول حبة ونصف حبة من سيبراليكس، بالإضافة لحبوب منومة، أوصاني بالعودة للعيادة لمتابعة وزني، وأن أبلغه في حال أي طارئ حدث معي عبر الواتس آب، غادرتُ تلك الغرفة المميتة، متوجهة للصيدلية ثم للبيت، أتذكرُ جيدًا أنني فتحت دفترًا صغيرًا عليه رسوم لتفاحات ملونة، كتبتُ: "انتقلت اليوم لجرعة إضافية من سيبراليكس"، مع توقيع بتاريخ اليوم والساعة، عندما حان موعد تناول الدواء، كنتُ أشاهدُ فيلم "السقوط بالقانون" لجيم جارموش، وكانت لدي قطاعة للحبوب، قرأتُ عنها ذات مرة وأنا أشاهدُ فيلمًا عن غسيل الكلى، تناولتُ الدواء دون المنوم، عندما شاهدتُ الفيلم كاملًا، تمطيتُ على الفراش قليلًا، ثم أمطرت كثيرًا.

"هلع في دمي"

تعتبر الأغاني العاطفية في حالتنا بمثابة عمل فضائحي، وأنا لا أحب ذلك على الإطلاق، أغنيات بعيدة، فلنقل مثلًا أغاني الهامش، والأقليات في كل مكان على هذه الأرض، مثل أغنية أمازيغية، ترثي فيها صبية صغيرة أباها. وإن شئت ألا نرمي النفور مما هو مألوف، سأقول لك، كل الأغاني التي لا تخطر على البال في العادة، عندما يتعلق الأمر بهذا الالتياع الشديد، وبالحاجة العنيفة لتقبيل عينيك طوال الليل. عندما كنتُ في الثالثة عشرة من عمري، توفي عم أمي بالسرطان وهو في سن صغيرة، بالطبع سألنا أنفسنا من التالي، وكنتُ آنذاك أعاني من نوبات صداع شديدة، حتى إنني مرة قضيت الليل كله أمام باب غرفة أمي وأبي لأنني ظننتُ أنني سأموت ليلتها، لم أطرق الباب أبدًا، وكنتُ أتألم بصمت، كما لو أنني استسلمت أخيرًا، مع أنني أستسلم كثيرًا. كل خلية في جسدي كانت متيقظة، سوزان سونتاغ تقول عن المرض: "المرض ليس استعارة، وأن ذلك هو الطريق الأكثر صدقًا فيما يتعلق بالمرض - والطريق الأصح في أن تكون مريضًا - وكذلك الأكثر تطهرًا، ومقاومةً للتفكير المجازي"(8). لذلك لا يمكنني قول شيء أكثر من هذا، عدا أنه ومثلما تلاحظ، لم أمت بعد.

محمومة للغاية وفي فمي أنشودة لحسين البرغوثي، أو هكذا أعتبرها، بعيدًا عن تعقيدات الشكل الكثيرة، "ويداك أمطارٌ على وردٍ على جبلٍ يطلّ على شباكنا وأنا رفّ رماديّ من الحجل الصغير يمر على الأودية ويطير إليكِ حتى ينتهي الموج عيناك أصفى من النار في باب كهفٍ في شتاءٍ وآتي إليك كأني أغنية أو شراع على ضفاف النهر حتى ينتهي الموج" ولستُ سعيدة بالمناسبة، إذ أنني أنزلق وكما ترى لما لا أحب، تلك العاطفة الغنائية، التي لها محاسنها، لكنها لا تنقل حرارة جسدي إليك،

ولا تريدك أن تفكر فيّ أبعد من يدي، التي نأت كثيرًا على طاولات كثيرة، كانت تحمل احتمالات ووعودًا، كلها قُتلت باستطراد مُغِثٍّ. أليس هذا كله يدعي التعقيد، وهو بسيط للغاية؟، وارتباكي هذا أليس شجيًا؟ لأنك هناك، تحسُّ بأصابعك الآن، وتدرك شيئًا فشيئًا ما يمكنها فعله بتصوراتي عن الاندثار الفوري للجميل، اللحظة الأولى للقاء به. حبيبي محمومة جدًا، ولا أريد استعارة، لأنّ حُمّاي هي الطريق.

سوزان سونتاغ كانت قد تأثرت بكافكا كثيرًا، بـ"بساطة"، عرفتُ ذلك من مذكراتها، أو فلنقل "بسذاجة"، هذه الكلمة أكثر ملاءمةً لتعليقٍ استقرائي كهذا، إذ يمكن ألّا أستخدم كلمة "تأثرت" لكنني أفعل، في كتابها "مجهان لموت واحد" عن المرض استشهدت بكافكا في رسالته لماكس برود، صديقه الذي أصبح محرره بعد موته. أليس هذا مثيرًا؟ على العموم كتب كافكا: "توصلت الى التفكير أن مرض السُل.. ليس مرضًا خاصًا، أو ليس مرضًا يستحق اسمًا خاصًا به، ولكنه فقط جرثومة الموت نفسها، مكثفة..". التفكير المجازي في مسألة الحمى هذه يؤرقني، حبيبي محمومة جدًا، وفي الجوار مني مسودة مشطوبة، مكتوب عليها: "لا تدّعي أنك لن تكتبي بلغة تقريرية، فتذهبين إلى اليومي، مستلقية، لا لكي يعض شفتيك، بل لأنكِ جثة.

الفصول تذهب وراء بعضها

بينما كنتُ أنقل الأرز المغلي من على موقد النار، سكبتُ بالخطأ ماءهُ الحار، وكان قد لامس بطني المنتفخ آنذاك، تخيلتُ أنني شممتُ رائحة اللحم المحروق، لكنني كنتُ مذعورة، لم تفد أكياس الخضار المثلجة، ولا ملاعق العسل، التي دهنتُ بها بطني أملًا في أن يذهب الألم، مع مرور الوقت صرت أتخيل أشياء عن تلك العلامة، التي تركتها لي فترةُ أمومتي المبكرة، بينما تقضي "إماه" أسابيع طويلة في مستشفى العاصمة، لإنجاب أختي سارة. تخيلتُ لو أنني أحببت ذات يوم رجلًا سيضع يده هناك بحذر بالغ، وأن أطراف أصابعه لن تضيع الطريق إلى شيء فريد كهذا، أستطيع أن أحكي عن ذلك اليوم، شيء يمكن أن يخبط قلبي لأجله، بينما تكبرُ سارة، وأنا لستُ في مكاني نفسه خلف الموقد.

بعدها بثمان سنوات سأكون في سنتي الجامعية الثالثة، أحاول أن أسخن سمنًا طبختهُ لي أمي، في ليلة شتوية، وستترك قنينة السمن الزجاجية الساخنة علامة على كفي، ستقودني على الفور لاختبار أول مرة حرقتُ فيها جلدي، سأود لو أنني أستطيع أن أدفع رأسي خارج النافذة، وأن يتحول العالم لمكان آمن، لكن العالم ظل فارغًا ولا يستجيب. بدا أنني أحاول استمالة إحساسٍ ما، شيءٌ يولدُ للتو عندما نحاول أن نمعن النظر في حدث تافه، شيءٌ أقرب للتعاطف، لكن الناس اليوم، يحبُّون البلادة، أو العبور السريع على ما يقتضي قدرًا من التأسي، ربما لأن في الطفولة شيئًا غير إنساني، بدائيًا، وحشيًا، يرفع الناس، راية التقويض، نتقهقر في جحر صغير، وندعي أن لا شيء، لا شيء، لا شيء، ولا نقولها إلا همسًا، ما الذي جاء بي إلى هنا؟ الحرق؟ الخريطة الجديدة على ظاهر كفي، تحت أصابعي، حيث العلامة الوافدة، في المكان الذي فيه أمي، والشتاء، والطفلة، وأصابعُ الرجل الذي لم يجئ بعد، والقصص التي تتهيأ لأن تروى، ولا تقال، أريد أن أخرج رأسي مجددًا، لكن العالم

في الخارج ترسانة، ولديّ ضحكةٌ ليست خرقاء، بل ضحكٌ مذنب.

قبل أن أغادر مطبخ السكن الجامعي، وفي الأيام الأخيرة قبل قرار تعطيل كل الأفران لضغط على المجمع الكهربائي واحتمالية نشوب حرائق، يمضي الشتاءُ بطيئًا، تطفأ وحدات أجهزة التكييف، أتركُ النافذة مفتوحة طوال الليل، أتعرقُ إذا نمتُ بدون مكيف، أتودد لمشرفة السكن ككلب صغير، لأقدم طلبًا لإحضار مروحة صغيرة، أكون واضحة بشأن ذلك، لا أرتدي معطفًا عندما أقابلها، هنالك حر خانق هذا ما ينبغي أن تشعر به فقط، أهز رأسي ولا أنشغل سوى بالنظر إليها، ثمة على مكتبها باقة لافندر ذابلة، أمدُّ يدي لألمس أطراف ورقة صغيرة، بينما تتحدث على الهاتف، يملأ الجو شعورٌ باقتراب كارثة، جُهدث كثيرًا وهي تحاول أن تصرفني، وأنا أحاول أن أحميها من مشقة إيذائي، تقول لي: "كفك محروقة"، كانت العلامة قد جثمت هناك، والصيفُ سيحل خلال أيام.

حزن قديم

حزينة جدًا وكعادتي أتهرب من مواجهة الأمر، إذ أريد حزنًا مفهومًا، لا ذلك الوحشي، الذي شعرنا به قبل أن نوجد، قبل حتى أن يخترعوا اللغة، قبل أن يسيروا على قدمين. أصدق أنني حزينة لأن لدي باقة ورد ذبل نصفها، قرأت أن ذلك يبث سمومًا في المكان، أتأكد من موعد دورتي الشهرية، أتفقد حسابي البنكي. ربما يحصل ذلك لأنني لا أرتدي جوارب، أسير على البلاط البارد كثيرًا، أو لأنني تناولت وجبة حامضة جدًا في الأيام الماضية، أو لأنني أفكر بالأنهار كيف تتدفق دائمًا في أماكن الحروب.

استيقظتُ فجرَ اليوم فزعة، شعور من يدرك نفسه محبوسًا داخل جسده، لدي يد في الداخل، هذه ليست يدي، لدي قلبٌ في الداخل، لا أحب بهذه الطريقة، لديّ خوف سحيق، عظامي فقدت أمانها، دمي ينز عن حيرة استحالت فجأة بحيرة متجمدة وثقيلة، كيف أصف ما أمر به، وجه الحزن المشوب بتفاهات التعقيد اليومي، إذ أنني أعرف مظهرًا صافيًا للحزن، هو الحب، ولكنك لا تحبني أبدًا.

كل ما تحتاجه الغرفة لكي تصبح منزلًا: بروزاك، رواية لنجيب محفوظ شخصياتها حلوة، ولغتها بعنفوان البيت الأخير، وحبيب بعيد جدًا، يتربى في الزمن الحلمي للمكان، وأثاث صامت، لا تخرج من خزانة ملابسه المقفلة عنوةً قطعة من فستان مهمل، أخلي أعضائي من رفات الخارج، من زميلة في العمل، كانت تقول لنا إنها لا تحب إضاعة الوقت في تبادل الحديث مع الآخرين، من أمي التي تقول إنها تنتظر عودتنا أنا وإخوتي لبيتنا في القرية، من ابنة عمتي الصغيرة جدًا التي تصنع ملصقًا توعويًا عن سوء التدخين، من تعليق يقول على تويتر: "تقدس الله وتنزه" لأن الماغوط يستمر في قوله: "الحزن متل الله"، من حبيبتك السابقة، تعود

Telegram:@mbooks90

إليك وتجدك، ومن سوء الفهم البالغ في تفسير كلمة: "تعال". لكنك لا تحبني للأبد.

عندما كنت صغيرة وفي المشاوير القصيرة التي رافقت فيها أبي، حين كان يترك "دشداشته" البيضاء في محل غسيل الملابس وكيها، حلمتُ كثيرًا أنني سأفتتح واحدًا ذات يوم، إذ أنني كنتُ أعد في طريق العودة، كم يساوي ضرب سبعة أثواب في مئتي بيسة، ولأن المحل لم يكن قريبًا بل في الجهة المقابلة من قريتنا، حدستُ بأن أحدًا لم يسبقني للفكرة، لذا صمتُّ عنها، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي سأفعل فيها ذلك، ربما لأن أحدًا لم يكن متاحًا لمشاركته هذه الفكرة التي ستنقلنا من الفقر إلى الثراء، قرأت بعدها بسنوات قليلة تحقيقًا صحافيًا عن الخزانات القذرة التي تُغسل فيها الملابس بشكل جماعي في مثل هذه المحلات، طالبين من البلدية أن تستعجل الرقابة عليها، تخيلتُ ذلك الهندي الذي يعمل هناك ويرتدي إزارًا أزرق، قاعدًا بجانب حوض سباحة ضخم، تجمعت عليه كل طحالب الأرض، ويدخل ثوب أبي فيه، ويخرجه بسرعة، أمي تقول دائمًا إن الملابس تحتاج لثلاث دورات في الغسيل، مرتين بالصابون ومرة بالماء وحده، لكن رائحة ثوب أبي المكوي، كانت رائحة يصعب وصفها، ربما تشبه في رصانتها رائحة أسرة المستشفيات، لا تتغير كثيرًا، أو ربما تشبه الشعر بعد "السشوار"، المهم أن ذلك لم ينقص من عزيمتي شيئًا، كنتُ أريد افتتاح ذلك المحل بأي ثمن كان. كبرتُ قليلًا لأكتشف بأن ذلك المحل نفسه الذي ترددنا عليه كل تلك المرات، كان محل أبي، وكنا فقراء، منذ ذلك الوقت، بصورة نهائية، وصرتُ فارغةً من التنعم في المشوار، ذلك المشوار الذي لم ينته. فلماذا بعد كل هذا الذي مررتُ به لا تحبني؟ ولماذا بعد هذا الذي يحدث الآن لا أكون حزينة.

تنبيه من صديقتي التي تسكن في ألمانيا، منذ يونيو المنصرم، لم أفتحه للآن يظهر لي عبر نافذة الهانج آوت في بريدي الإلكتروني، الكلمة

التي تظهر لي من الإشعارات: "هنا"؟ بخط (bold) واضح. لن أفتح الرسالة، تحدثنا بعدها كثيرًا، لكن هذه عالقة في هذا الصندوق، لا أحد يرسل لي في هذا التطبيق غيرها، كل مرة أريد هذا السؤال نفسه، ليس هنالك كثر يسألونني هل أنا هنا، عدا من أعمل معهم بكل تأكيد، إذ يهمهم على نحو مثير للبؤس أن تكون هنا دائما. أما أنا بعيدًا عن هذا فهنالك مكان أرثي فيه لنفسي، كلمة "هنا" أخيرة. ولدي "هنا" تسبقها، هنا حزينةٌ لأنني أحبك جدًا أكثر من كل الحزن، وأنت يا للأسف وللسعادة لا تفعل.

أشياء البيت الصغيرة

هنالك بعض الأشياء الصغيرة التي لا ينبغي تغييرها في الصباح، كأن تشرب قهوة مرة، وتعلق المنشفة في مكانها، وألّا تنسى مصباح الغرفة من الليلة الماضية، وإذا اضطررت لكيّ قميصك مستعجلًا، تنتبه بترك المكان آمنًا خلفك، الصباحات الجيدة هي تلك التي لا تخترع فيها شيئًا، وتمضي، "أحبك" ليست كلمة لأجلي، والبحث طويلًا عن مفتاح الباب لن يقودك لمكان ما.

تقتصد.

ربما عليك أن تقول شيئًا، دون اعتناء تترك الباب مواربًا فهنالك باب خارجي، تقول شيئا في خطواتك القليلة، إن كنت قد تعلمت شيئًا عن الحب في سنواتك الماضية فهو ألّا تقول أكثر مما فعلت الآن، بعيدًا ونائيًا في السر، لا استطراد، هذا ليس خداعًا.

اليوم كنتُ قد قبلتك كثيرًا، دون إلقاء التحية، لم نتظاهر بشيء، "أحبك" الكلمة الأضعف في هذه اللحظة بالذات، لم ننطق بها، لأول مرة، كنتُ قد تركتُ شعري في ذقنك، وذهب الليلُ ولم ننتبه.

لمبة الغرفة لم تعد تعمل، لدي الكثير من الأشياء التي ينبغي ترتيبها في الدرج، وعليّ أن أصنّف قطع الملابس، حسب حاجتي إليها، لديّ قمصان لتنويعات حدائق، كلما شاهدوا قميصًا بورد قالوا لي: "هذا يشبهك"، كنتُ أشتريها على الفور، عندما كنا صغارًا كان أقراني يتحفظون على تناول خضروات المزرعة، كنتُ الوحيدة التي آكل برفقة أبي، قالوا إنني لا أرفض شيئًا ولا أضع شروطًا، وربما كبرتُ لأكون عكس ذلك بالمرة في بعض الأحيان، أظنُّ أنني متطلبة بطريقة مغثية، لقد أصابني باليأس شعوري هذا، في المرة القادمة سأسأل جدتي كيف كبرت النخيل في حديقة بيتها على الرغم من الماء المالح، لأنها تسكن بجانب البحر.

كان في بيت جدتي، جدةٌ أكبر، تأكل في حصن منفصل، تستلقي طوال اليوم، لا تتحدث كثيرا، يقبلون يدها طوال الوقت، ولم أكن أعرف بماذا سأناديها، وهل ينبغي عليّ أن أقبلها أنا أيضًا، أعرفُ أن لكل عائلة جدة، لكنني لم أكن أعرف بعدُ أن للجدات أمهات، مرة عندما كنتُ في السادسة، جلستُ بجانبها لآكل من صحنها نفسه، ربما عجز الآخرون عن مناداتي في تلك اللحظة، لأسباب أفهمها الآن، كانت تقتصدُ في تناول الطعام، لأنني معها، ومنذ ذلك الوقت تعلمتُ أهمية أن تكون بطيئًا عندما تحب.

أخي الأصغر يقول لأمي إنها "سكر" هكذا دون أن يكلفه الأمر شيئًا من الجهد كما ألاحظ، أشيح بوجهي، أبتعدُ كثيرًا، السكر هو ما يوضع في شاي الحليب كل صباح، لم أعرف غيره عندما كنتُ في عمر أخي، أخي الصغير يقبل أمي على رأسها، أمي التي لا تكبرني إلا بخمسة عشر عامًا، ألا يعدُّ هذا بعيدًا عليها؟، فلم تصبح بعد بمنزلة الأمهات الكبيرات مثلما هن أمهات صديقاتي، أنادي أمي بأمي، أقبلها على وجنتيها فقط.

في غرفتي بعيدًا عن بيت عائلتي، لم أعتد النوم في وقت محدد. ليس هذا شيئًا جديدًا، هذه الليلة قمتُ من على فراشي بصعوبة، وقفتُ أمام المرآة، ومسحتُ بإسفنجة مسطحة مكياجي، كان شحوب الفتيات في القرن الماضي، علامة للجمال، أما اليوم فهو مصداق عدد الصفحات التي تقطعها كل ليلة في كتابٍ ما، تتسلل من خلف الستارة البنية خيوط الصباح الأولى، أقلّب تويتر حتى أنام، تمر عليّ لوحة "الأفق الأزرق" لجورج شبراني، الزرقة تطفو فوق، فيما ألوان التربة المختلفة تندمج سويًا في الأسفل، أشجار زرقاء.

رسالة حب

تمنيتُ لو أنك نسيتَ ملاحظة صغيرة في صفحات الكتاب الذي أهديتني إياه، لو فكرتَ بأن توقيعك على الصفحة الأولى لن يكفي كل هذا الزمن الذي أحياه دونك. أسير بين الآخرين، وفي أكثر أوقاتي تناغمًا مع العالم، مثل راهبة، يؤرقها سؤالك، فأنت ربها الذي يقفُ لا على حدود الأشياء كلها، بل يتلبسها، متيحًا لهذه المؤمنة الضئيلة أن تشك، وأن تعيش في غموض محبب، يشبه جبلًا ظليًا هائلًا كل ألوانه تشبه مجاز لونٍ أكثر منها لونًا واضحًا ومباشرًا.

أفكرُ وأنا في رحلة تخييم، أقابلُ جبلًا ورديًا باهتًا، بأنك عرضتَ علي الزواج، بعد كأس واحدة من العرق، وكُنت تنظرُ في عينيّ، بوجهك الذي غادره احمراره، وبدوتَ عندما قلت لي ذلك، كما لو أنني أجلسكَ على ركبتيّ، ما يجعلني على الفور أمسخ على رأسك، متمنية أن أطمر رأسي في كأس عرقك. وما من سبيل لك لكي تعترض طريقي إليك.

استلقيت على جانبي الأيمن بجانب نار أشعلتها مع أصدقائي في رحلة التخييم، وتركتُ صديقتي تقرأ من الكتاب نفسه، تقرأ بصوت عال، لم أجرؤ على إصدار حركة واحدة، حتى لا أضيع مخرج حرف واحد من تلك القصائد، وكنتُ أفكر أنه خمري الذي أريد أن أعترف بعد كأس واحدة منه، لولا أن البارحة التي مضت على وجودك معي، تناسلت كثيرًا وبلا نهاية.

كل لحظة أعيشها، هي توقيعٌ على محوي من العالم، ومهما تحركتُ حول الحياة في مدارات، ما كانت إلا حلقات التلاشي التي ألقمها جسدي كله، لذلك كان حبك بالنسبة لي جسمانيًا، اذ يمكنني ببساطة أن أؤشر عليه، وأن أراه يلمعُ، غير متطير، ويمكن تمييزه، حبك لم يكن إيماءة، بل ذراعًا أو شحمة أذن.

الطقس معتدل، رغم أننا في يناير، لكن ومع قدوم الفجر يصبح الجو باردًا على نحو غير متوقع، نمتُ بمعطفي، وطويت جسدي داخل البطانية، كطفلة مستعدة لعبور البرد. لو أنني كنتُ سريالية، مثل جويس منصور، لظننتُ أن بردي، مثل خطوات تترك آثار أقدام نزولًا عبر العالم، وأنك الآن تحركُ مهدًا لكي لا يوقظ الشتاء الطفلة الصغيرة الممحوة حبيبتك.

تحت سمرة، تدخلني أشعة الشمس خطية، يعترضها شوكُ السمرة وغصونها الدقيقة، وأوراقُ لونها زيتيّ، والعصافير تصفرُ في أشجار مجرى الوادي الذي يقع أسفل المكان الذي أجلس فيه، يقطع هذا المشهد طنين الذباب، الذي يحوم في المكان، كما لو أن كرشًا ضخمة انبجست عن حفلة طعام مكشوفة، وأشعرُ أنني في جنازة، وأن هذا الهدوء هو نعشكَ، وأن ذراعك ملت، أو أغراها مهدٌ آخر. وبهذا فإنني أنجح في إفراغ أكثر الأماكن سحرًا من حمولتها، وأن أخبئ دموعي على سفح جبل متروك في البراري، رافضًا إياي لأنك رفضتني.

ستائر مغلقة

لا أحب الستائر المفتوحة، حتى عندما سكنتُ في شقة كبيرة مع شرفة، كنتُ لا أفتح الشرفة أبدًا، أدخل إلى الغرفة وأنسى أن ثمة عالمًا في الخارج. هل لعيبٍ فيّ؟ لستُ أدري، لكنني بالتأكيد صديقة الخيارات الصغيرة والمتواضعة، إذا كانت الحياة محدودة، فها هي ذي نفسي، ليستْ القناعة، ولا الاستسلام، بل شيءٌ أشبه بألّا يكون ثمة طريقة أخرى. اليوم دخلت صديقتي للغرفة، قبل وقت الغروب بقليل، كنا نشاهد فيلمًا، قالت سأفتح الستارة قليلًا وأعدك سأقفلها قبل أن يحل المساء. لا تحبُّ نوف أن يمضي اليوم دون أن تعرف ذلك، تشهدُ الغروب، ولو أنها كانت مستيقظة لأرادت أن تشهد شروق الشمس، لكنها تكتفي بمراقبة تحولات اليوم، وهذه هي الخلفية التي تعيش وراء نشاطاتها، أما أنا فأغلق الستائر، والعالم، هو عالم واحد، والأيام كلها يوم واحد، ساعة واحدة، أو لحظة تندثر.

بوسع أحد أن يقول إنني أخاف من شيء ما في الخارج. بالتأكيد ثمة شيء ما يتعلق بهذه الرغبة في قطع الرؤية، وأشد ما يثيرني في الأمر، أنني أحب المدى المفتوح، فالسفر في الطرق السريعة لطالما كان محط إعجابٍ شديد بالنسبة لي، لكن ربما جاء كل هذا الخطر، من نشأتي الأولى، القرية الفسيحة التي كبرتُ فيها، المترامية حد أنني لم أتبين فيها شيئًا، فأردتُ طوال الوقت، أمتارًا صغيرة، أستبدل بها تلك الأميال الملغزة كلها، عندما سكنتُ هذه الشقة، قضيتُ الأيام الأولى فيها بلا ستائر، كنتُ نكدة غالب الوقت، لم أستطع أن أقرأ، كانت المحلات مفتوحة قبل حظر التجوال بسبب فيروس كورونا، كنتُ الزبون الأخير الذي تنازل عن كرسيه في المقهى الذي أرتاده في العادة، وعندما اضطررتُ لتركيب الستائر قلتُ وأنا أتنفس بقوة: أخيرًا صار لديّ بيت.

جورج بيريك يظن بأن القطط تسكن أحسن منا في البيوت، ذلك لأنها تجدُ على الدوام خلواتها الملائمة، لا تحتاج للتفكير كثيرًا، تعيش، تربي عائلة لو استطاعت، ترقد على أطفالها، تكبرُ في المكان نفسه، تألفُ كل شيء وتتعامل معه، يظنُ الناس أنهم بحاجة للون جديد، أو لنافذة أكبر، يظنُّ الناس أن البيت لابد وأن يرمم، يظنُّ الناس أن البيت يمكن أن يستبدل، يظنُّ الناس أن فتح الستارة وإغلاقها كلاهما خياران لا يتضادان، ليس ثمة معركة هنا، لكنني أظن طوال الوقت بأنني أخفي عن الجميع ذلك السر، أنني وفي الحقيقة قطة.

مخرج من البيت: في رثاء خضرة البيت

بقي من الماضي أشياء كثيرة، كلما نظرتُ إلى نباتات الزينة في هذا المقهى، سرتْ في أوصالي رعشة المسافات المقطوعة منذ الطفولة وحتى هذه اللحظة. وعلى الرغم من أنني أعود إلى هنا كل يوم منذ سنتين إلا أنني أعيد الكرة عشرات المرات، وأنظر مجددًا لهذا المطاط، لدرجة اللون الأخضر المتوهجة، أكتشف أن الأمس ليس قصيًا فتكتسب تلك الصغيرة قوامها مجددًا، والأشياء تأخذُ شكلها أمامي كما لو أن لحظة واحدة لم تمر.

في البيت لدينا شجرٌ حقيقي، جذور ضاربة في الأرض، وحبات ليمون تجفُ تحت الشمس، وساقية مياه، يسمونها الفلج، ولدينا كذلك بئر كنتُ أخشى أن يموت فيها إخوتي الصغار، وبالطبع كان هنالك شجرة، شجرة أوهمتني أنني صعدتُ إلى أعلى قمة، وأنني بعيدة، كما كل شيء بعيد. في البيت لدينا أب يرتدي ثوبًا واحدًا منذ خمس سنين، وإيماءاته، تكتسب طابعًا مبهمًا كلما مر الزمن، وأمي، تفرط في الأبناء قبل أن يتجاوزوا شهرهم السادس، يكبرون بعيدين في الثلج، في الزجاج. جميعنا نرتدي أحذية بمقاسات كبيرة، لم يكن في البيت أحد سوى أمي، بمقاس ستةٍ وثلاثين تصارعُ خطواتنا المسرعة، وتلتقطنا قبل أن نسقط من على سلالمه. قبل ما يزيد على خمسة عشر عامًا، سقط أخي، وهو في عربة الأطفال وشجَّ رأسه، وتدفق الدم على يدها غزيرًا، وكنتُ أنا من يركضُ طالبًا النجدة، كنتُ أنا من أدربُ لياقتي على إنقاذ الدم.

في القلب دمٌ وافر، وحمرةٌ تدلُّ على جثة مجمدة، وصوتٌ مكتوم لشخص مات منذ زمن بعيد، تحركه اليوم أوراق نباتات الزينة الساكنة، تأخذه إلى الخطوط المتعرجة الصفراء في ورق حديقة البيت الحزينة، الأكثر حزنًا من المطر.

(1) ولاية صلالة تقع في محافظة ظفار، جنوب عمان تبعد عن القرية التي تعيش فيها الكاتبة ما يزيد عن 1000 كم.

(2) لا يعقب رياح الغربي المطر عادة.

(3) إشارة لقول المسيح في صلبه.

(4) من مجموعة "نحن الذين لا نخاف أيام الآحاد" لرولا الحسين.

(5) العنوان من تعبير غوستاف فلوبير عن اضطراب إيما في رواية "مدام بوفاري".

(6) مقطع من قصيدة "المحافظة على كمال الأشياء" لمارك ستراند.

(7) نيتشه.

(8) مقاطع من كتاب سوزان سونتاج "وجهان لموت واحد"، بترجمة أحمد زغلول الشيطي.